تجديد البيان في تقريب القرآن

الجزء 1

كتبه نورالدين

إهداء

علم الله أنّني منذ أن جلســت أدرس ما يســمّيه الناس كتب التفســير، عقدت النيّة على أنّه إذا مدّ الله في عمري فإنّني ســأقعد لكتابة تفهيم للقرآن كما اســتقبلته الأذن العربيّة إذ نزل، ولكنّ للدنيا تقلّباتها وللنفس تقلّباتها، وقد ظننت لعقد أو أكثر أنّ هذا المشروع سيكون مشروع الشيخوخة الأثير لديّ.

وها أنا الآن في أوّل الكهولة، أعقد العزم على إبرار هذا المشــروع، فإنّ أطوار الجماعة أهمّ من أطوار النفس، وللجماعة أولويّة على الفرد فيما أرى، ولقد لمســت حاجة عظيمة لدى الناس من حولي إذ يعانون ما عانيته طفلا أثناء قراءة كتب التفسير المليئة بالعنعنة وأقوال السابقين، والتفســيرات التي تطوّع النصّ لما تعتقده ولا تطوّع ما تعتقد به للنصّ ذاته.

وقد رأيت أن أســمّي مجموعة الكتيّبات هذه "تجديد البيان في تقريب القرآن"، وأن أخرجها في أجزاء وأنا أكتبها، وفوق ذلك أن أخرج كلّ مقالة منها للناس أثناء الكتابة في مدوّنتي، ثمّ أنقّحها التنقيح الأوّليّ لدى إصــدار كلّ جزء، فإذا اســتوى الكتاب كتابًا قصــدت إلى نشــره بطريقة أو أخرى.

وإنّني إذ أنشر أوّل كتيّب من هذه الكتيّبات الإلكترونيّة التي تنسّق لكي تسهل قراءتها على الهاتف الذكيّ، لتكون رفيقة القارئ إذ يقرأ القرآن، وتكون وسيلة من وسائل تعلّم اللغة العربيّة، وتكون سبيلا من سبل تجديد الخطاب الدينيّ الذي تضافر عليه المال السياسيّ وغربة الناس عن اللغة وطول الزمن والتقاليد، فإنّني أهديه لكلّ من علّمني أن أقرأ وأعيد القراءة وأحاكم فهمي وأصوّبه قبل أن أتبنّاه.

فلكلّ معلّم مخلص، ولكلّ كاتب ترك لنا ما نهتدي به إلى فهم قويم، ولكلّ شيخ جلست في حلقته، أهدي هذا الكتاب، كما أهديه لكلّ من يطلب الفهم قبل أن يحكم، ولكلّ من يخيب أمله إذا قلّب صفحات كتب التفسير، فأحسّ أنّها تعقّد الفهم ولا تيسّره.

إلى كلّ هؤلاء أقول: أتمنّى أن أكون على قدر المسؤوليّة التي حملتها إذ تعلّمت، وأتمنّى أن تكونوا على قدر مسؤوليّة ما ستفضي به صفحات هذا الكتاب إليكم.

مقدّمة

إن مرور الزمن، والأطوار التي يمرّ بها اللسان العربي نفسه، وتشعب العلوم وتراكم الشروح والتفاسير – على جلالة قدرها وعظيم نفعها – قد تخلق أحياناً حجاباً غير مقصود بين القارئ المعاصر وبين الوهج الأول للكلمة القرآنية كما تلقاها الرعيل الأول في بيئتها اللغوية والثقافية والتاريخية.

قد نجد أنفسنا نردد آيات عظيمة، ونتلو سوراً كريمة، وقلوبنا وعقولنا لا تتفاعل معها بالعمق الذي تستحقه، ربما لأن بعض المفردات فقدت رنينها الأصلي في استعمالنا اليوميّ، أو لأن بعض السياقات غابت عن أذهاننا، أو لأن التكرار ألّف بيننا وبين النص حتى كاد أن يحجب بعض معانيه عنا.

من هذا المنطلق، ومن الشعور بالحاجة إلى مد جسر يعبر هذه الفجوة الزمنية واللغوية، تأتي المقالات هذه محاولة متواضعة. ليس القصد هنا تقديم "تفسير" بالمعنى الاصطلاحي الذي استقرت عليه قواعده وأصوله عند علمائنا الأجلاء، فتلك صنعة لها أهلها ومناهجها التي نحترمها ونقدرها. إنما المقصد هو "التقريب" و"التزمين": تقريب المعنى القرآني ليكون في متناول فهم الإنسان المعاصر، وتزمينه ليتفاعل معه القارئ اليوم كما تفاعل

معه أهل ذلك الزمان الأول، دون إخلال بأصالته أو تحميله ما لا يحتمل.

ولبلوغ هذا المقصد، اتخذنا منهجاً يرتكز أساساً على العودة إلى جذور الكلمة القرآنية في تربتها اللغوية الأولى. فبحثنا في أصول الألفاظ ودلالاتها في لغات العرب وقت التنزيل، مستعينين بالمعاجم اللغوية القديمة، وبمقارنة الاستعمال القرآني باستعمالات العرب في أشعارهم وأخبارهم، مع الالتفات إلى ما قد تكشفه أصوات الحروف ذاتها من ظلال للمعنى. كما حاولنا فهم النصّ في سياقه التاريخي والثقافي الذي نزل فيه أوّل مرة.

وللتدرج في هذا الفهم، سلكنا مسلك ترتيب نزول السور التقريبي، معتمدين أحد الترتيبات المشهورة (ترتيب الجعبري)، لا لنقرّه على أنه القول الفصل، فالخلاف في الترتيب معروف ومعتبر، ولكن اتّخذناه وسيلة منهجية تساعد على تتبّع تطوّر الخطاب القرآني في مراحله الأولى، وفهم كيفية معالجته للقضايا والتحديات التي واجهت الدعوة في مكة.

فبدأنا بقصار السور المكية التي تمثل الشرارة الأولى للوحي، لعل ذلك يعين على فهم لغة القرآن ومنطقه قبل الانتقال إلى السور الأطول والأكثر تفصيلاً.

إن ما نقدمه هنا هو قراءة، وتأمل، ومحاولة للفهم، ندعو القارئ الكريم لمشاركتنا فيها بعقل متفتح وقلب متدبر.

نأمل أن تكون هذه المقالات عوناً على إدراك جانب من عظمة البيان القرآني، وأن تسهم في تجديد صلتنا الحية بهذا الكتاب الخالد، وأن تفتح نافذة للنظر إلى معانيه من زاوية قد تضيء جوانب لم تكن واضحة من قبل، وتترك أثرًا يليق بهذه المعاني في حياتنا اليوميّة التي أزعم أنّها ابتعدت عن مقاصد القرآن.

نسأل الله التوفيق والسداد، وأن ينفع به قارئه وكاتبه.

مقالات القرآن العظيم 1 | البسملة

البدايات تحمل في طياتها أهمية خاصـة، فهي كالبوابة التي تُفتح نحو عالم من المعاني والتصـــورات. وما نقف عنده اليوم هو تلك المقدمة المكثفة التي غالبًا ما نرددها دون تعمق في معانيها الأصـــلية أو اســـتيعاب لجذورها اللغوية العميقـة. إنهـا تلـك الكلمـات المختصـــرة التي تفتتح بهـا نصـــوص الســـور القرآنية، والتي اصـــطلح عليها كمدخل أساسي للقراءة وافتتاح للممارسات اليومية.

فاتحة الفاتحة

معلومات ضرورية:

- تسـميتها بالفاتحة تسـمية اصـطلاحية وفّقت إليها أمّة الرسـول (الرسـول وأهل زمنه). وليس اسـما أصـليا لـها فالسـور القرآنية نزلت دون عناوين، وقد سـميّت بذلك لأنّهم عندما رتّبوا المصحف جعلوها فاتحته أي بدايته، وهي ما يبدأ به المسلم صلاته وقراءة القرآن.
- هي السورة الوحيدة في القرآن التي تبدأ بما نصطلح عليه باسـم منحوت "البسـملة"، وهو حكاية صـوت "بســم الله الرحمن الرحيم"، وثمّة خلاف حول جعل البسملة آية في الفاتحة أم خارجها، لكن من المعروف

المشـــهور أنّ البســملة في ســائر بدايات الســور من وضــع الورّاقين والنسّــاخ، فنقرؤها في بداية الســور باستثناء "براءة".

- قيل عنها إنّها المثاني التي أضـــيفت في منطوق القرآن للقرآن وكأنّها غيره، وسمّيت بذلك لأنّها تثنّى أي تكرّر قراءتها، وقال آخرون: بل المثاني هي السور الطويلة التي تثنّى فيها الأمثال أي تكرّر.
- ثمّة من يذكر أدعية ســريانيّة قريبة جدًّا من الفاتحة، وثمّة من يقول إنّ زيدًا بن عمرو بن نفيل كان يقرأ بها قبل البعثة.
- تسمّى بأمّ الكتاب بمعنى مقدّمته وفاتحته كما يقال: أمّ وجهه، والأمّ قد تأتي بمعنى المقدّمة وقد تأتي بمعنى الأصــل، وهذا المعنى حاضــر في وصــف الآيات المحكمات أيضًا، أي التي لا اشتباه في معناها.
- ترتيب نزولها حســـب ترتيب النزول هو الســـورة السادسة.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة كلمة

"بسم"

أي "باسـم: بِ اسـم" حذفت الألف بسـبب الإملاء القرآني السـابق على تدوين قواعد العربية، ومنها قول الناس باسـم الشـعب وباسـم الأمة، أو قول أحدهم: باسـمي وباسـم زملائي، والباء هنا تكون للإلصـاق، وهذا هو القول الراجح، ومن أمثلة باء الإلصـاق في العربية "فكلًّا أخذنا بذنبه"، أي جعل الأخذ متعلّقا بالذنب. فإذا أقررنا بكونها للإلصاق بكون معنى "باسم فلان": إنّ الكلام الآتي متعلّق بفلان المذكور.

قال بعض الناس: "بل الباء للاسـتعانة"، وهذا قول غير موافق لطبيعة العربية في ترتيب الكلام، وحتّى يستقرّ ذلك في وعيك، نضـرب لك أمثلة باء الاسـتعانة: كتبت بالقلم، حفرت بالفأس، ضـربت بالسـوط، فهي تجعل ما بعدها ممّا اتّصل بها أداةً، ولا يجوز هذا في حق اسم الله. وهذا أفضل ما وصل إليه علمنا.

"الله"

اســم ربّ الناس جميعا عند العرب قبل الإســلام، وقد كان العرب يســمّون كلّ الرعاة أربابًا، فربّ الإبل صــاحبها، وراعيها، وربّ الشــياه مثله، وربّ العائلة أي معيلها. أمّا اشتقاقه ففيه أقوال:

منهم من قال إنّ الله اســم غير مشــتقّ، فربّما جاء من لغة أسبق من العربيّة. ومنهم من قال إنّه مشتق من الجذر "أ ل هـــ" وأله أي استجار، ومن أسماء الشمس أُلاهة، ومن معاني هذا الجذر أيضًــا التحيّر والعبادة والتنسّــك. وهناك رأي يرى أنّ أصـــل الكلمة "الإلـه" ثم دخلت عليها أل التعريف فصـــارت "الإلاه" ثم حـذفـت الهمزة تخفيفًـا فأصــبحت "الله". وبعض اللغويين يرى أنّ اللفظ قد يرتبط بجـذر "ل أ ه" بمعنى الارتفـاع والعلو، أو من "ل و ه" بمعنى الاستتار والاحتجاب.

ثمّة أيضًا من يرى علاقة بين الاسم "الله" والكلمة السامية القديمة "إيل" التي كانت تستخدم للإشارة إلى الإله الأعلى في اللغات السامية القديمة. وفي الكتابات العربية الشمالية القديمة وُجدت كلمة "هــ إلاه" (أي الإله) بمعنى يُشير إلى إله محدد.

مهما كان أصـــل الاشـــتقاق اللغوي، فإنّ مفهوم "الله" عند العرب قبل الإســـلام كان يُشـــير إلى الإله الأعلى الخالق، وإن كانوا قد اتخذوا أصـنامًا وسـطاء بينهم وبينه. وقد جاء الإســـلام ليؤكد وحدانية هذا الإله ويزيل فكرة الوســـطاء، ويزيل أصنام القبائل المختلفة، فالله هو ربّ الناس كلّهم بما يشمل الجميع في كل مكان أو زمان.

"الرحمن"

أي "الرحمان" بالإملاء المعاصـــر، وهو اســـم حوله جدل كبير قديم، منذ أن أنكرتـه قريش على الرســـول الكريم فنزلت آية ســـورة الفرقان في ذلك: "واذا قيل لهم اســجدوا للرحمن قـالوا ومـا الرحمن انســـجد لمـا تـامرنـا وزادهم نفورا"، وآية ســـورة الإســـراء "قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى".

وممّا يجب أن تعرفه أنّ مســـلمة الحنفيّ أو من ســـمّاه المســـلمون مســـيلمة الكذّاب كان يســـمّي نفســـه "رحمان اليمامة" تعظيما وترهيبا للآخرين، ولم يكن الاسم مستخدما بين عرب مكّة، وقد خصّــه القرآن بين أسـماء الله بأن كان مكافئا في الاســتخدام لاسـم الخالق عند العرب "الله"، فأتى دون أن يكون اســـما لصـــفة كالرحيم والعزيز وغيرها من الأسماء.

اســـم الرحمن هو صـــيغة فعلان من الجذر "ر ح م" وهذا الجذر هو أصل فعل الرحمة وأصل اسم رحم المرأة، وهذا الجذر متعلق بالاستمرارية في الراء، والسعة والشمول في الحاء، والميم في الثبات. هكذا قال الصوتيون من اللغويين، ومن الجـذور المجـاورة لــه "ر ح ب" ومنــه الرحـابـة والاتّســاع، ومن مقلوباته "ح رم" والحَرَم المكان المحميّ، المنيع "الحمى".

أمّا علاقة هذه الاشـــتقاقات بهذه المعاني من الأصـــوات والجذور القريبة فهي واضــحة كالآتي: أن ترحم أخاك أي أن تسعه، وأن تصله، وأن تتمسّك به. والرحم تسع الجنين، وتصـــله بالغذاء والحياة، وتمســكه فيها، وهي مكان منيع، وصفه القرآن: ". . . في قرار مكين"، وجعله حمًى حراما حافظًا بذلك الأنساب.

وهكذا نعلم أنّ الرحمن اســـم مقابل في القرآن لاســـم الله، وهو ربّ النــاس جميعـا في لغـة بعض العرب، أي أنّـه المكافئ اللغوي عندهم لاســـم الله عند قريش، وأنّ معناه اللغويّ متعلّق بالشـمول والمنعة والاتّســاع، ما يجعلنا نفهم أنّه حافظ الوجود بمطلقه.

"الرحيم"

صيغة الصفة المشبهة من الجذر "ر ح م"، وهذه الصيغة في العربية تستخدم بمعنى من يتّصف بالرحمة، وقد تأتي بمعنى من تقع عليه الرحمة أيضا، لكنّها في حقّ الله لا يجوز إلّا أن تكون بمعنى من يهب الرحمة ومن يتّصف بها لا من تقع عليه، وقد يتبادر إلى الذهن صيغة الفاعل "راحم"، والفرق بين صيغة رحيم وراحم هو الآتي: الراحم من قام بفعل الرحمة مرّة، أمّا الرحيم فهو من اتّصف بالرحمة باستمرار وتجدّد وأصالة، لا بظرف وانقطاع وحدوث.

أي إنّ الرحيم صفة ديمومة وأصالة في المتّصف بها، وهو اسم من أسماء الله لم يكن له استعمال اسم الرحمن، فاسم الرحمن له مكانة خاصّة في القرآن، فالقرآن يضعه مكافئا لاسم الله صراحة: "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن"، أمّا الرحيم فقد كان اسمًا يأتي ملحقا بوصف الله أو الضمير العائد على الله.

الآراء الأخرى

هنا من الحريّ بالقارئ أن يعرف الأقوال الأخرى في البسملة، فمن الناس من جعل الباء فيها للاستعانة كما تقدّم، ومنهم من أثار استغرابه الجمع بين اسمين يجد بينهما

تكرارا في الجذر "الرحمن الرحيم"، فأعمل عقله ليصل إلى سبب لهذا الجمع، حتّى خرج إلينا بتفسير يقول: إنّ الرحمن صفة متعلّقة بالرحمة الشاملة، والرحيم صفة متعلّقة بالرحمة الخاصة بالمؤمنين، وليس لقوله أصل لغويّ أو تاريخيّ ذو اعتبار، على أنّنا نورده لأنّه من كلام السابقين الذين نكنّ لهم احترامًا.

أثر التكرار في الفهم

واعلم أيّها الطالب أنّ الناس إذا كرّرت قولا بات له معنى يقترحه التكرار غير المعنى الذي يقترحه اللفظ، كما في الأمثال قولهم: "دهدرّين سعد القين" وهذا المثل يحتاج أصله للبحث الكثير حول قصّته ولفظه، غير أن قائله لا يعرف بالضرورة أصله، ولكنه يكرّره في موضع مشابه للموضع الذي سمعه فيه، فيكون بمعنى "يعدكم فلان غرورا".

وتكرار البسملة قد يكون حجب معناها عن كثير من المسلمين وغير المسلمين، فأصبحوا يكرّرونها في مفتتح كلّ خطاب، وهي كما في القرآن اقتصر ذكرها على مفتتح كتاب سليمان إلى ملكة سبأ، وعلى مفتتح كتاب محمّد

للعرب، فهي بمعنى أنّ هذا القول منسوب لله، أو للرحمن، المتّصف بصفة الرحمة.

الإعراب والدلالة النحوية

وقد امتدّ عوار المعنى الذي خلّفه التكرار إلى الإعراب، والإعراب فرع المعنى، فأعربوا الرحمن نعتا لله، وفسّروا الباء إلصاقًا فاضطرّوا إلى تقدير فعل لها، والصواب في رأينا أنّ شرح البسملة يكون أوفق إذا رأينا أنّ اسم الرحمن جاء بدلا من اسم الله بدل مطابقة، ثم جاء الرحيم نعتا، وأنّ الباء في بسم هي بمعنى الإلصاق، فتكون البسملة شبه جملة لا تتمّ إلا بما يأتي بعدها من كلام الله، فيكون المعنى: القول الذي يأتي هو قول الله - الرحمن الرحيم.

البسملة في بعض الممارسات

هذا القدر كاف، ولكنّ الناس قد تتوقّف عند كثير من الأمور، فتنكر عليّ اجتهادي هنا بأن يذكروا البسملة قبل الطعام، أو حديث له عدّة روايات منها رواية شعبية بأن كلّ أمر أو كلّ حديث لا يبدأ باسم الله فهو أبتر أو أقطع. والحديث في لفظه الصحيح غير ما يقوله الناس، إذ إنّه يقول: **كُلُّ** أمرٍ ذي بالٍ لا **يُبدَأُ** فيهِ بِالحَمدِ أَقطَعُ. أو بروايات أخرى ليس من بينها ما يتداوله الناس مما يلتبس عليهم بالبسملة.

أمّا بسملة المسلم لدى تناول طعامه أو لدى تذكية الذبيحة، فلها معنى عظيم، فهي كأنّه يقول: إنّني لم أستحلّ دم المخلوق الذي آكله إلّا باسم الله، وهذا ما يجعله يتقصد في الطعام، عالما أنّ قتل الكائنات في أصله حرام، غير أنّ الله أباح بعضه لاستدامة الحياة.

عهد الختام

ربما كان عليك بعد كلّ هذا الشرح لشبه جملة من القرآن أن تقف لتتساءل: كيف كنت أردّد هذا دون أن أفهمه! وما معنى أن أختم القرآن في شهر إذا كنت لا أفهم أوّل بضع كلمات فيه؟ وهل أنا مقصّر بذلك في حقّ الدين الذي أدّعي أنّني أعتنقه؟ وما الذي أقرؤه ولا أفهمه أيضا من القرآن؟

فإذا كانت استوقفتك هذه التساؤلات بعد وقوفك على المعنى الذي بسطنا فيه الحديث، فربّما سيسرّك أن تعلم أنّني سأتمّ ما يقدّرني الله على إتمامه من التأمّل في القرآن لتزمينه وجعله في متناول الفهم المعاصر، ولكنني سأتّبع ترتيبا غير الترتيب المعمول به في التفاسير المختلفة، فسأبدأ بالفاتحة لمكانتها ثم أعود فأبدأ بسور القرآن مرتّبة حسبما وصلنا من ترتيب نزولها، فنتمّ أكثر قصار السور المكّيّة قبل أن أنتقل إلى السور المدنية الطويلة.

مقالات القرآن العظيم 2 | الفاتحة

قبل أن نبدأ بتزمين سورة الفاتحة للقارئ المعاصر، وبعد أن شرحنا البسملة في المقالة السابقة، معلّقين على سبب تسميتها الفاتحة، أظنّ أنّه من المناسب أن نشرح كلمة "سورة" وربّما كلمة "آية"، وأن نفهم لماذا نسمّي سور القرآن سورًا. وبعد ذلك سندلف إلى فاتحة الكتاب بطريقتين: القراءة التفصيلية للآيات، ثم القراءة الشمولية للسورة، وهذا المنهج سيستمرّ معنا في قصار السور، حتّى إذا مدّ الله في أعمارنا كاتبًا وقرّاءً انتقلنا إلى طوال السور أو السور الطُّوَل فغيّرنا المنهج بما يتناسب مع تركيبها.

معنى سورة

السورة من الجذر "س و ر" وفيه معاني الإحاطة ومنها السور، والعلوّ ومنها السَّوْرة، والانفصال وهذا نراه في السور أيضا الذي يضرب بين قطعتي أرض ليفصل بينهما. وعلى ذلك فالسورة هي القسم من النص العالي الذي يشكّل وَحدة موضوعيّة واحدة.

معنى الآية

الآية لغة من "أيا"، وهي العلامة، ومنها طلب التحديد أو التوضيح بكلمة "أيّ"، ولمّا كان الورّاقون يضعون علامة تفصل بين الجملة والجملة أو الفقرة والفقرة في القرآن، جرى اسم آية عليها. وكذلك هي علامة من الله، والآية غير البرهان والدليل، فالدليل يكون موجّها لمن لا يعرف الطريق، أمّا العلامة فتكون على هيئة رجم أو رقم يضعه الرحّالة في الطريق، فيراه من يسلك الطريق. أمّا البرهان فهي كلمة أعجمية فارسية بمعنى الشرح الواضح أو الإثبات القاطع، وكذا استخدمت في العربية حتّى يومنا هذا، وربّما يجدر هنا أن نذكر كلمة أخرى وهي الحجّة، وهي غير ذلك كلّه: هي شرح للموقف وتكون لاحقة عليه، فأنت تمسح القرائن باحثا عن أدلّة، حتّى تجد طريقك فترى علامات على صوابك أو علامات على خطئك، وإذا كان هذا كلّه معنويًّا ممّا يختصّ بالتفكير شرحت ذلك في حجّة، فإمّا أن تكون برهانًا إذا ظهرت على كل ما سواها.

وبعد هذا فالآية في المصحف هي العلامة، مادّيًّا ومعنويًّا، هي علامة في النص تدلّ على جملة منه أو بضع جمل أو أكثر، وهي علامة تؤيّد من اختار طريقه، أي على سبيل الإشارة من الله له بكونه سلك طريقا قويما، وهذا هو استخدامها إذا وردت ككلمة في القرآن.

الفاتحة

سبق الكلام عن وجود اختلاف بين المسلمين الأوائل حول كون البسملة جزءًا من الفاتحة أو لا، والذي رجّحته الأمّة وقبلته أن تدخلها فيها فتكون الآية الأولى من الفاتحة والآية الأولى من المصحف. ثمّ جرت عادة كاتبي نسخ القرآن أن يكرّروا البسملة في بداية كلّ سورة. وهنا تجدر الإشارة أن سورة "براءة" التي لا تبدأ بالبسملة مختلف على كونها سورة أو تتمّة لسورة بين المسلمين الأوائل، وكأنّ السور الذي يفصل السورة عن السورة هي البسملة ذاتها، وقد سبق شرح البسملة في المقالة الأولى.

"الحمد لله ربّ العالمين"

كلمة "الحمد" من الجذر "ح م د"، وهي تختلف عن الشكر والمدح. فالشكر يكون على نعمة محدّدة، والمدح قد يكون مبالغة أو تملّقًا، أمّا الحمد فهو إقرار بالفضل والكمال. الحمد في العربية القديمة يرتبط بمفهوم الاعتراف بالقيمة الذاتية للمحمود، بغض النظر عن المنافع الشخصية، واللام هنا للاختصاص، أيّ أنّ الحمد يليق بالله وحده، وإن حمد الناس بعض الصفات في بعضهم بعضا، ومنه المحمّد والمحمود وأحمد، وكلّها مشتقّة من الحمد.

وهذا يفتح باب القراءة على كون هذا من الكلام الذي يجري على لسان العبد، وسيأتي تأكيد ذلك فيما بعد، فالله وإن كان يليق به أن يحمد نفسه، أو أن يختص نفسه بالحمد، لكنّ جملة "إيّاك نعبد" لا يجوز أن تفهم إلّا على لسان العبد، وربّما هذا ما حدا ببعضهم أن يراها مفصولة عن القرآن، إضافة لما تقدّم ذكره سابقا في المعلومات الضرورية في المقالة الأولى.

"ربّ العالمين" وصف مركب يستحقّ التأمل. "ربّ" في اللغة العربية القديمة مثل أب، وتعني المالك والمدبّر والمربّي. وتأتي "العالمين" من "عَلَم" بمعنى ما يُعرف، وصيغة الجمع تدلّ على كلّ ما يعرف، فالعالمون هم الناس كافّة من جهة، والأقوام كلّها من جهة أخرى، وهم أيضا القبائل كلّها، وتحديد المعنى الدقيق مقترن بالسياق، غير أنّنا نعرف أنّ الله عند العرب هو ربّ كلّ شيء، أي كلّ ما يمكن أن نعرفه.

"الرحمن الرحيم "

سبق شرحها في المقالة الأولى.

"ملك يوم الدين"

"مالك" و"ملك" قراءتان متواترتان، والفرق بينهما دقيق. "مالك" تشير إلى الملكية والتصرّف، بينما "مَلِك" تشير

إلى السلطة والحكم. و"يوم" في العربية ليس مجرد وحدة زمنية، بل يشير إلى أيّ حدث أو موقف محدّد، وكثيرًا ما يأتي بمعنى طور، فتقول العرب "يوم كذا" يعنون بذلك وقعة دامت أيّامًا وليالي طويلة. أما "الدين" فجذرها "د ي ن" يرتبط بمفهوم النظام والجزاء والمسؤولية، ومنها "ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين الملك"، فالدين لا يترجم إلى معتقد كما جرت عادة الناس، بل إلى معنى النظام في عمومه، وهنا بالتحديد تأتي بمعنى الحساب والجزاء ومنها الدينونة.

"إياك نعبد وإياك نستعين"

"إياك" ضمير نصب منفصل يفيد التخصيص والحصر. "نعبد" من "ع ب د"، وتعني في أصلها الخضوع الطوعيّ، والانقياد المدرك. و"نستعين" من "ع و ن" طلب العون والمساعدة. يلفت النظر هنا الانتقال من الغائب "الحمد لله" إلى المخاطب "إياك"، وهو أسلوب يعبّر عن تحول في مستوى العلاقة من الوصف إلى التواصل المباشر.

ولنلاحظ هنا أنّ الكلام بصيغة الجمع، وهذا ممّا لم تجر عليه العادة في مخاطبة ذوي السلطة، فالعرب والعجم

يستخدمون ضمير الجمع للتبجيل، فيخاطبون الملك الفرد كأنّه جماعة، ولا يستخدم الفرد في حضرة ذوي السلطان ضمير الجمع لنفسه، وهذا مقام تذلّل لا فخر. هكذا علينا أن نتساءل عن كون القرآن يعلّمنا أن ندعوَ الله بهذه الطريقة: إيّاك (ملِك مفرد)، و(نعبد ونستعين) بصيغة الجمع.

أمّا السبب فيما أرى فهو أنّ الله يؤكّد على وحدانيّته، ويرسّخها في قلوب العباد من جهة، ويرسّخ في قلوبهم أنّ الطاعة جماعيّة، فالدين بمعنى النظام لا يكون للفرد، فإذا أسندت كلمة الدين إلى الفرد كانت بمعنى العادة والديدن. فالإنسان المسلم يعبد الله في جماعة، أو على الأقل هذا هو الوضع القياسيّ الذي يعلّمنا القرآن.

"اهدنا الصراط المستقيم"

"هدى" في العربية تعني الدلالة الممنوحة إرشادًا بلطف، ومن الكلمات المجاورة لها الهَديُ (ما يذبح تقرّبًا للإله)، والهديّة المعروفة. "الصراط" أو السراط كلمة معربة من أصل يوناني بمعنى المهيع أو النهج، أي الطريق الواسع الواضح. و"المستقيم" من الجذر "ق و م" بمعنى الاعتدال والاستواء.

ولنلاحظ هنا أنّ مخيالنا المسكون بسلك ممدود فوق الجحيم نسمّيه السراط، فهذا ليس ممّا تدلّ عليه الآية، وهو يتناقض مع فكرة النهج القويم الواسع الذي يطلبه الإنسان منّا في الدنيا من الله.

"صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين"

هنا نجد وصفًا للمسار الذي نطلب من الله أن يهدينا، وهذا الوصف ليس على سبيل الاشتراط أو التحديد، هو تذكير للنفس التي تقرأ الآيات بأنّ الصراط المقصود من صفاته أنّه يأتي بالنعمة والرخاء، ولا يأتي بما يستجرّ غضب الله، ولا يأتي بالتخبّط والضلال.

على ذلك فإنّ الطريق المطلوب طريق واسع واضح نسير فيه جماعة لا أفرادًا، وهو يستجلب نعمة الله ويأتي بالرفاه، وليس فيه ما يغضب الله، ولا هو يأتي من خلال الضلال والتيه.

كلمة يضيفها الناس

كلمة "آمين" ليست عربية في أصلها، بل هي من الكلمات في اللغات الآفرو-آسيوية (ما يسمّى لغات ساميّة) القديمة، نجدها في العبرية والآرامية والسريانية، وهي في هذه اللغات تعني التثبيت والتأكيد وطلب الاستجابة. وقد دخلت العربية مع الممارسات الدينية، فأصبحت تستخدم في ختام الدعاء وفي المواقف التي يطلب فيها المتكلم تحقّق ما يرجوه.

في الاستعمال العربيّ، صارت الكلمة بمثابة اسم فعل بمعنى "استجب"، وهي لا تتصرف كالأفعال العربية ولا تشتق منها المشتقات المعروفة. ومن المهم أن نعرف أنها ليست من القرآن، وإنما أضيفت في الممارسة الشعائرية كتعبير ختامي يقال بعد قراءة الفاتحة وبعد الدعاء عمومًا. وهي تمثل مثالًا جيدًا على التبادل اللغوي والثقافي بين اللغات الشقيقة في الأقوام المنضوية في النسيج العربيّ، وكيف أن الكلمات المقترضة تندمج في النسيج اللغوي والثقافي للغة المستقبِلة دون أن تفقد معناها الأصلي.

القراءة الشموليّة

إنّنا نتعلّم أوفق طرق الدعاء من سـورة الفاتحة، السـورة التي تجري في مبناها وفي الممارسـة الفعليّة على لسـان المسـلمين. وهذه الطريقة هي على الصـورة الآتية: البدء بـالاعتراف بنعم الله بـالثنـاء عليـه بمـا هو لا بمـا أنعم علينـا فقط، ثمّ التوكيد على أنّـه ربّ النـاس كافة وربّ المدركات كلّها ممّا أدرك أو سـيدرك، ثمّ معرفته بما يحبّ أن يعرف به وهو أنّه رحمن (مطلق الوِسـع) رحيم (مطلق الرحمة)، وأن نذكّر أنفسـنا بأنّنا ننقاد إليه طوعًا ونطلب منه العون جماعة لا أفرادًا، وأنّ العبادة وطلب المعونـة متوجّهة إليه مخصوصـة به، فإن كنّا نعين بعضـنا أو نطيع بعضـنا فهو أمر جزئيّ من عبـادتنـا لـه. فـإذا طلبنـا منـه فـإنّ الطلـب ذا الأولويّة هو للجماعة لا للفرد، وأنّنا نؤكّد على وحدانيّة الله بمخاطبته بضـمير المفرد، وأنّ أوفق طلب هو طلب هداية الجماعة إلى نهج واسـع واضـح يكون طريق النعمة على العباد وطريق رضـا الله، بغير تخبّط أو ضلالة.

هذا ما نقرؤه في كلّ صـلاة، وأكثرنا يقرؤه في كلّ ركعة، فهل هذا مـا نعيه عندمـا نقرأ؟ أتمنّـى ذلك وإن كنت لم أقعد للكتابة إلّا وقد استقرّ في رأيي أنّه للأسف ليس ما نعيه. بل وإنّ كثيرا من النـاس لا يرى فيهـا دعـاءً لله بهدى النـاس كافّة إلى منهج قويم واضـح واسـع، بل يرى أنّه يطلب

لنفسه أن يقطع سلكا ممدودًا فوق الجحيم، وفصلا له عن أهل الكتاب من الرسالات السابقة، ويحوّلها إلى شتم يشتم به آخرين كان يفترض أن يدعوَ لهم مع قومه بالهداية ذاتها.

سأستمرّ هذه المقالات بعد الآن متّخذًا ترتيبا متعلّقا بتوقيت نزول السور حسبما وصلنا من الأقدمين، وذلك ليس احتجاجا على ترتيب المصحف، ولكنّه من باب التسهيل والأخذ باليد حتّى يتّضح المنهج ثم نأتي للسور الطويلة بمنهج قريب يناسب تعقيدها وكثرة أمثالها وموضوعاتها وطولها بصورة عامة.

إن كنت ترى معي أهمّيّة في هذا التأمّل، فأرجو منك مشاركة ما أكتبه مع من حولك والحوار حوله.

مقالات القرآن العظيم 3 | سورة العلق

سبق وأن شرحنا معنى سورة، وسبق أن وعدنا بأن نبسط في حمل معنى القرآن للإنسان المعاصر حسب ما كان شائعا حول ترتيب نزول السور، وأوّل هذه السور سورة العلق، ففيها ابتداؤنا. لكن يجدر أن نعرّج على أمر يتعلّق بترتيب سور القرآن حسب النزول، فهو أمر غير شائع بين المسلمين اليوم، وفيه أقوال.

أمّا الأقوال فهي حول الترتيب ذاته، فليس ثمّة اتّفاق بين المسلمين من عصر التدوين حول ترتيب نزول السور، وهو مجال جدل وأخذ وردّ، فمنهم من لا يعدّ الفاتحة في ترتيب النزول، ومنهم من يضعها في السور الأولى، ومنهم من يقول إنّها أوّل سورة أنزلت في المدينة، ولكن ثمّة بعض السور ذات الخصوصية التي في نصّها ما يشير إلى توقيت نزولها، أو أنّ ترتيبها متّفق عليه بين المسلمين.

وهذا الجدل نذكره للتعلّم لا أكثر، فهو لا يعنينا مطلقا هنا، إذ إنّ الغرض الذي نريده من هذا الشرح وهذه المقالات لا علاقة له بتأييد ترتيب محدّد، فالغرض حصرا هو التدرّج في فهم لغة القرآن للطالب، والبدء بقصار السور، وذكر طرف من أسباب النزول، نريد منه أن يعين على الفهم.

أمّا الترتيب الذي سنعتمد عليه فهو ترتيب الجعبري في منظومته التي سمّاها "تقريب المأمول في ترتيب النزول" ولا غرض لنا من ذلك إلّا ما ذكرنا، وقد اعتمدت هذا الترتيب مع أنّني أتحفّظ عليه، ولا أراه الأمثل، لكنّه يفي بالغرض، ويجنّبنا الجدل بسبب شيوعه بين الناس، ثمّ إنّ الجعبري رحمه الله ذاته لا يدّعي أنّه الترتيب القطعيّ الذي لا نقاش فيه، فهو لولا ذاك لم يسمّها "تقريب المأمول"، أليس هذا واضحًا!

ووقفتنا هنا مع أوّل سور القرآن نزولا بما لا اختلاف فيه، وهي سورة العلق، وتسمّى اقرأ أيضا، أمّا اختلاف الأسماء فهو راجع إلى أنّ المسلمين كانوا يدعون السورة بكلمة بارزة فيها، وربّما لم تذكر الكلمة في سورة أخرى، ولذلك تختلف أسماء السور بين المصاحف والروايات وكلام العلماء عنها.

سورة العلق

اقرأ باسم ربّك الذي خلق

كلمة كلمة

اقرأ: من الجذر "قرأ" وفيه معنى جمع المعلومات وضمّها وفهمها وإفهامها وقد يمتدّ إلى الامتثال، فالقراءة لا تعني فكّ الرموز الكتابية إلى أصوات حصرًا، بل وهضم النصّ

أو المعلومة أو الملاحظة، ولذلك نقول قرأت ملامحه، وقرأت الوضع، وهذه قراءة محتملة للنصّ. . . إلخ.

وإذ يقتصر فهم عموم الناس على القراءة بمعنى فكّ الرموز الكتابية وتحويلها إلى أصوات، فإنّ ذلك بسبب تداول قصّة نزول أوّل آية في القرآن. وهي معروفة لا حاجة لنا أن نكرّرها، وتستطيع أن تجدها ببحث بسيط، وفيها أنّ الوحي الكريم عندما جاء الرسول في معتزله في غار حراء، قال له: اقرأ، فقال الرسول: ما أقرأ (هذا حسب رواية ابن إسحق)، أو قال: ما أنا بقارئ (حسب رواية البخاري الذي جاء بعده بمئة عام).

وصيغة "ما أنا بفاعل" فيها نفي إرادة، لا نفي قدرة! وما الفرق؟ لو قلت لك: ما أنا بمخبر أحد، فهذا وعد منّي بألّا أخبر أحدًا. أمّا إذا قصدت أن أنفي قدرتي على فعل شيء قلت: لا أفعل، أو لست بفاعل. . . ودونك شعر العرب ونثرهم الفصيح لتتبيّن ذلك، ولهذا فيرجح لي أنّ القول الأسبق لابن إسحق أدقّ من قول البخاريّ الذي ربّما منعته عجمة من أن يدرك الفرق الدقيق بينهما. ولكن هل هذه تعني النفي من الأصل؟ فالعرب حتّى وقت متأخر لم يكن لديهم علامات ترقيم مثل النقطة وعلامة التعجّب والفاصلة وسواها. أليس من المقبول أنّه قال له: وما أقرأ؟

إذا قرّ في وعيك معنى القراءة الذي يتجاوز فكّ الرموز، أو تخلّيت عن وصف الرسول بأنّه مصروف عن القراءة والكتابة، أو أنّه "أمّيّ" بهذا المعنى، لا بالمعنى القرآنيّ للكلمة، وأعني هنا واحدة من الاثنتين أو كلاهما، فإنّك ترى معي أنّ كلمة "ما أنا بقارئ" ليست هي الرواية الأقوى، وأنّه ربّما كان يسأل كما يفهم من الصيغة التي أوردها ابن إسحق وهي "وما أقرأ".

وإيّاك أن تضجر من الاستطراد حول كلمة كهذه، فهي كلمة محورية، ستعني الكثير فيما بعد. والآن نستطيع أن نقول إن معنى اقرأ: أي استجمع العلم وامتثل له، فأنت عليك أن تعلّم غيرك، أمّا المفعول به لهذا الفعل هو ما سيأتي ممّا سنعلّمك إيّاه، أي اقرأ ما سيأتيك علمه في حينه.

باسم ربّك

وقد تطرّقنا إلى معنى "باسم" عندما شرحنا "بسم الله" في المقالة الأولى لدى تناولنا البسملة، ومعناه الذي حقّقناه يقضي بأن يكون معنى الآية هنا (اقرأ ما سيأتيك ذكره منّي عن الله)، وهنا يكون علينا أن ننظر في كلمة "ربّك"، ونتساءل لماذا لم تكن الله أو الرحمن مثلا، ولنلاحظ أنّها ربّ أي راعٍ، وفي هذا طمأنة عظيمة، ثم إنّها مضافة إلى

ضـــمير المخاطب "ربّك"، وهنا تزداد الطمأنة فوق ذلك درجة.

أظنّ أنّك لو تـأمّلت هذا التعبير، ســـيخطر في ذهنك أنّ الرسـول كان خارج معتقد قومه في تلك اللحظة، وأنّه كان بـات موحّدًا مصـــدّقًا بـالإلـه ذاتـه الذي يحدّثه عنـه الوحي الأمين.

الذي خلق

هنـا يتّضـــح من يعتقد محمّد في تلك اللحظـة أنّـه ربّـه، إنّـه يعبد الذي خلق. وخلق هنا في البداية مطلقة، أي إنّه الخالق الأوّل. والخلق في اللغة تبديل الشـــيء من حال إلى حال، لكنّـه عندما يكون فعلا مطلقا يدخلنـا في حلقة غير منتهيـة من خلق الأشـــياء من حال إلى حال، ونقلها من طور إلـى طور، فننظر في الطور هذا ونقول مخلوق من طور سبقه، ثمّ ننظر في الطور الســـابق ونقول فيه ما قلنا في الحالي، حتّى نقول إنّه الخالق الأزليّ الوجود.

خلق الإنسان من علق

هذه الآية تأتي على سبيل التذكير، لا على سبيل الإعلام، فمحمّد والعقلاء من بني زمنه يعرفون أنّ الجنين يبدأ بعلقة تعلق في الرحم، وهم أهل تربية شياه وإبل ورعي، وحريّ بهم أن يعرفوا ذلك. ونلاحظ هنا أنّ تمحّك بعض الذين يقاربون القرآن العلم الحديث إذ قالوا: "لم يكن معروفا أنّ أصل الجنين علقة"، قول لا وزن له، فالوحي يدلّ محمّدًا على الله بما يعرفه محمّد عن الكون وعن الله. هذا ديدن من يعرّف أيًّا كان بمعلومة جديدة، أن يتّكئ على ما يعلم ليخبره بما لا يعلم.

"اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم"

يعيد هنا أمر القراءة، اقرأ، ثم يعطف الأمر على معلومة: "وربّك الأكرم"، ولأنّنا نرى أنّ الله كلّيّ العلم نرى المعلومة مستقلة، ولا نرى أنّ ربّك معطوفة على ضمير المخاطب أنت. أي (اقرأ واعلم أنّ ربّك الأكرم)، "الأكرم" من الجذر "ك ر م" الذي يدل على الشرف وخطر المنزلة، وقد ارتبط عن العامة بالجود بسبب أنّ الشرف عند العرب لصيق بالجود والسخاء. وصيغة التفضيل هنا تشير إلى أن منزلته تفوق كلّ منزلة شريفة.

"علّم" من الجذر "ع ل م" الذي يدل على الأثر والعلامة، ومن مشـــتقّاته العالَم والأعلام أي كلّ ما يخلق علامة في الذهن. والتعليم هو وضع العلامات التي تقود إلى المعرفة، وهذا التعليم عامّ مطلق، أيّ إنّـه هو الذي علّم كلّ الخلق، فهو مصدر المعرفة الواقعة في العقول.

"القلم" من الجذر "ق ل م" الذي يدل على القطع والبري، ومنه تقليم الشــجر وتقليم الأظافر. والقلم ســمي بذلك لأنه يُقلم أي يُقطع ويُبرى، وهو أداة الكتابة حينها: قصـــبة تقلم وتبرى وتغطّس بـالحبر، أو غصــــن يقلم ويكتب بـه على الطين.

فلماذا يخصّ الله القلم؟ ألم يعلّم بالكلمة أيضـا! ألم يعلّمنا بما وهبنا من نظر وقدرة على التفكير! وبما وضـــعه فينا من غريزة لغويّـة فطريّـة! بلى ولكنّ عِلْم القلم علم متجـاوز للحظة له ديمومة وفيه تراكم إنسانيّ عابر للعصور.

"علّم الإنسان ما لم يعلم"

لأنّ الكلمات هنا مفهومة، فيجدر بنا أن ننظر في الصـياغة الكلّية لهذه الآية وصلتها بالآية السابقة. إنّ الإنسان إذ تعلّم بالقلم، تجاوز مدركاته اللحظيّة التي يشــهدها وأفكاره التي

تطرأ له ولأهل زمانه وقومه إلى مدركات وأفكار أقوام آخرين في أزمنة أو أمكنة أخرى.

ثمّ إنّ هذه الآية فيها إشارة واضحة إلى استمراريّة عمليّة التعلّم، فلا يكون الإنسان – كلّ إنسان، قد علم ما علم وانتهى، بل يتعلّم ما لم يعلم.

"كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى"

كلّا: للزجر والنهر. فعن أي شيء يزجرنا الله هنا؟ إنّه يزجرنا عن أن نظنّ أنّنا بلغنا ما نعلمه بأنفسنا دون نعمة منه. ثمّ يأتي الاستطراد لهذا الزجر ليوضّح أنّ هذا ممّا يجدر بنا أن نزدجر وننتهي عنه: "إنّ الإنسان ليطغى".

"يطغى" من الجذر "ط غ ي" الذي يدل على مجاوزة الحدّ، فنقول: طغى السيل أي جاوز حدّه، وطغى فلان أي استبدّ بآخرين، والطغيان مجاور للتغطية والعماء، فهو إذ يطغى يغطّي على ما هو مدرك، ويكفر الآخرين حقّهم. فما الذي زيّن للإنسان طغيانه: "أن رآه استغنى".

"استغنى" من الجذر "غ ن ي" الذي يدل على الكفاية وعدم الحاجة. وصيغة "استفعل" تدل على طلب الغنى أو

ادعائه، وهنا هو ادّعاء للغنى، أو ظنّ من الإنسان أنّه غنيّ عن الله بعلمه أو بالنعمة التي لديه مادّيّة كانت أم معنويّة.

إنّ إلى ربّك الرجعى

تذكير بالمصير "إلى"، الذي هو عودة الأمر إلى أصله "الرجعى"، فهنا عود على بدء: سيعود الإنسان الذي أوكلناه إلى نفسه ليكون الله الحاكم الوحيد لمصيره، فما هي المصائر الممكنة؟

أرأيت الذي ينهى عبدًا إذا صلّى

"أرأيت" من أساليب العرب بالافتتاح والفرَض، وليس بالضرورة أن يكون رأى ذلك رأي العين، بل هو الرأي الذي نتصوّره أيضا. "ينهى" أي يطلب منه أن يرتدع ويكفّ وينتهي. والعبد سبق شرحه، فهو المنقاد طوعًا لأمر من يواليه. أمّا كلمة "صلّى" فتستحقّ الوقوف عليها لاستيضاحها، فلم تكن الصلاة المعروفة شرعت بعد، ولم يكن نزل القرآن ليصلّي به الناس صلاتهم من تكبير وركوع وسجود كما نعرفه اليوم.

وهذه الآيات متأخّرة في نزولها حتّى عاد الرسول من الغار وبدأ بدعوة الناس، فغلظ عليه عمّه أبو لهب بالقول

والفعل، فنزلت فيه، فالعبد الصالح هنا الرسول، والذي ينهاه هو أبو لهب، لكنّ اللفظ جاء عامًّا بعكس آيات ستنزل قريبا تذكر أبا لهب صراحة.

"صلّى" أي أدّى الصلاة، والصلاة من الجذر "ص ل و" وفيه معنى الوصل وهو من مقلوباته جذر مجاور له، والصَلا المؤخّرة، التي تصل بين الجذع والأرجل ومن هذا اكتسبت اسمها هذا، والصلاة الدعاء، والصلاة صلة الناس بالناس، كلّ ذلك من الصلاة، فما الصلاة المقصودة؟ الصلاة المقصودة هنا الدعاء والإحسان، أي مناجاة الله في طلب أو حمد، أو دعوة الناس إلى الخير، أو الإحسان إلى خلقه.

أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى

كلّ الكلمات معروفة أو مرّت من قبل، باستثناء التقوى وهي مفهوم مركزيّ في القرآن كما سيأتي لاحقا، والتقوى من الجذر "وقي" وفيه معنى الحماية والتحوّط من كلّ شرّ، فالتقيّ هو من يتقّي كلّ مكروه، أو يقي الناس المكروه، أو يخشى غضب الله. . . إلخ.

وهنا يصوّر لنا أمرًا ممكنًا وهو أن يكون هذا العبد الذي صلّى (بمعنى الدعاء) على هدًى أي أنّه على الطريق

القويم، فنهيه عن فعله ضــــدّ الهدى، وإن كان بمعنى الإحســـان ودعوة الآخرين فعمله هذا يقع ضـــمن التقوى أيضـــا ونهيه عنه ضــــدّ التقوى، أي تعرّض للشــــرور والعضب.

أرأيت إن كذّب وتولّى

هنا يفهم من السياق أنّ الكلام لم يعد عن العبد الذي صلّى بل عمّن ينهاه، فهو هنا في موقع التكذيب، أي تكذيب الدعوة التي تلقّاها من المصــــلّي. والتكذيب الإنكار وعدم التصــــديق، وفوق ذلك هو يتولّى أي أنّه يبتعد عن هذه الدعوة دون أن يقبلها.

ألم يعلم بأنّ الله يرى

هذا السؤال ليس سؤالا، بل طريقة بلاغية لإيصال المعنى، ومخاطبته بما يوافق عليه: تذكّر أيّها المنكر للدعوة أنّ الله يراك. وهذا يعني أنّ الدعوة لم تكن لأناس لا يصـــدّقون بالله، بل هم يصـــدّقون بالله كما هو واضـــح في الآية وكما وضّحنا في المقالات السابقة، لكنّه يكذّب هذه الدعوة.

كلّا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية

وهذا الإملاء إملاء حديث، فكما أسلفنا لم يكن الإملاء العربيّ قد استقرّت قواعده حينها، فكتبت "لنسفعًا" هكذا. وبعد كلّا التي تقال للزجر والردع والتنبيه جاء الوعيد: إذا لم تكفّ عن فعلك فإنّ الله سيسفع بناصيته، فما هي الناصية؟ وما هو السفع؟

أمّا الناصية فهي من (نصو) وفيه معنى التقدّم، وناصية الرأس غرّة الشعر، وهي موطن كرامة عند العرب، ومنها مجازًا أن يسمّى أهل الحلّ والعقد في قوم بنواصيهم. وقد كانت العرب ترى جزّ الناصية من علامات الذلّ، والأخذ بالناصية اقتياد وأسر. أمّا السفع فهو السواد الذي يصيب الحجار من التعرّض للنار. فالتهديد هنا جاء باستخدام ضمير نحن للدلالة على العظمة، وهو يعني أنّه إذا لم يكفّ يده ولسانه عن العبد الصالح فسيكون مصيره الخزي والذلّ.

ناصية كاذبة خاطئة

ناصيته كاذبة وفوق ذلك خاطئة، هذا مجاز واضح، فلا يمكن حمل الكلام على مقدّمة الجبهة فعلا، ولكنّ الكلام عن وجهته، وعن منزلته في قومه. إن المعنى هنا أنّ الذي

ينهى عن الدعوة لله يختار طريقا يعلم أنّه طريق الكذب والإنكار، وهو في ذلك خاطئ، والخاطئ هو المعتدي لا الواقع في الضلال فقط.

فليدع ناديه، سندعو الزبانية

النادي من النداء، وهم القوم الذين يجيبون نداءك إذا ناديتهم. فالقول هنا: اتركه يستجلب عليك ممن ينصرونه ما يريد، فإنّنا سندعهم للزبانية تردعهم. والزبانية من الزبن: وهو دفع الناس وحشرهم وإخضاعهم بالقوة، وما زال مستخدمًا في العامية النبطية. ولاحظ هنا أنّ الضمير الذي يتحدّث الله فيه عن نفسه صار ضمير نحن، وهذا من باب الفخر والعلو.

كلّا لا تطعه واسجد واقترب

هذا الزجر في كلّا بات موجّهًا للنبيّ ذاته، أو للمسلم الذي يقرأ القرآن إن أردت، فهو ردع عن اتّباع هؤلاء الذين يخوّفون الناس مثل أبي لهب، فلا تطعه والطاعة ما علمتم من انقياد واع مدرك، وهي أقلّ من السجود، فالسجود الامتثال الكامل مع الخضوع التام، وقد سمّي إلصاق

الجبهة بالأرض سجودا لما فيه من خضوع تامّ، وفي هذا السجود تقرّبك الحتميّ إلى الحقّ.

ولنلاحظ فكرة السجدة في القرآن: أنت تتلو القرآن وتعرف أنّ له أسباب نزوله، لكنّك عندما تمرّ بسجدة تتحوّل إلى سامع يرى الكلام موجّهًا له، فتسجد أنت. وفي هذا فكرة عظيمة تستحقّ التأمّل.

المعنى الشموليّ للسورة

ينقسم النص إلى ثلاثة أقسام/مقاطع متتابعة تشكّل معًا رسالة متكاملة: الأول يتناول العلاقة بين الخالق والمخلوق، والثاني يتناول طغيان الإنسان، والثالث يتناول المواجهة بين الحق والباطل.

في المقطع الأول تتجلّى علاقة وثيقة بين الخالق وخلقه، يفتتحها بأمر القراءة المنسوبة إلى الله تعالى. وهذه القراءة ليست مجرّد تلاوة، بل هي استجماع للعلم وفهم له وامتثال لمضمونه. ثم يتبعها ببيان قدرة الخالق المطلقة في خلق الإنسان من علق، ليؤكد أن هذا الخالق هو مصدر العلم الذي يقرؤه الإنسان، فهو الذي علّم بالقلم، وعلّم الإنسان ما لم يعلم.

أما المقطع الثاني فينتقل إلى طبيعة الإنسان وميله للطغيان حين يظنّ نفسه مستغنيًا. وهذا الطغيان ينشأ من وهم الاستغناء عن الله، سواء بالعلم أو بالمال أو بالسلطة. لكن هذا الوهم سرعان ما يتبدّد حين يدرك الإنسان أن مصيره إلى ربه، وأن كل ما يملكه من علم أو قوة إنما هو عطاء من الله.

ويأتي المقطع الثالث ليجسّد هذا الصراع بين الحق والباطل في صورة حيّة: من جهة عبد صالح يدعو إلى الله، ومن جهة أخرى متسلّط يحاول منعه. والمفارقة هنا أن هذا المتسلّط يعلم في قرارة نفسه أن الله يرى، لكنه يصرّ على موقفه المعادي للحق. وتختتم السورة بموقف حاسم: لا طاعة لمن ينهى عن الحق، وإنما الطاعة والسجود والقرب لله وحده.

وهكذا تكتمل دائرة المعنى: من علاقة الخالق بالمخلوق، إلى طبيعة المخلوق وميله للطغيان، إلى المواجهة الحتمية بين الحق والباطل. وفي كل هذا تبقى القراءة - بمعناها الشامل من فهم وامتثال - هي المفتاح للخروج من هذه المواجهة منتصرًا.

مقالات القرآن العظيم 4 | سورة القلم

تسمّى هذه السورة سورة القلم أو سورة نون، إذ إنّها تحوي في مطلعها قسما بالقلم، وتبدأ بحرف مقطّع وهو حرف النون، ولكنّ اسم هذا الحرف كبعض الحروف الأخرى له معنى آخر إذا كتب ككلمة، فنون الكلمة لها ثلاث دلالات: الحرف، ودواة الحبر، والحوت، وهي حسب بعض من رتّبوا أسباب النزول الثانية بعد العلق.

ولكنّ فيها آيات يقول بعض الرواة إنّها نزلت في الأخنس بن شريق أو في الوليد بن المغيرة، وهذه الآيات فيها ذمّ شديد، يظنّ معه أنّها لا يمكن أن تكون نزلت إلّا بعد دعوة العشيرة بصورة علنيّة أو شبه علنية. وهي إلى جانب ما رأينا في سورة العلق ممّا قيل إنّه نزل في أبي لهب، وسورة المسد أو (تبّت) الّتي تذكره صراحة وهي غير بعيدة في الترتيب من هذه (الخامسة)، وهذا يعني أنّ سرّيّة الدعوة ليست بالصورة التي يتخيّلها كثير من الناس.

فلو قلنا إنّ أبا لهب كان من عشيرة الرسول القريبة، فهذا لن ينقذ صورة الدعوة السرّيّة المتخيّلة، فالوليد بن المغيرة أو الأخنس بن شريق لا يمتّان له بصلة قرابة مباشرة كعمّه. يبقى أن نذكّر أنّ ترتيب الآيات داخل السورة الواحدة كان متأخّرًا، ولم تكن تنزل كلّ سورة وحدة واحدة.

تغيير في المنهج

لأنّنا أمام سورة من إحدى وخمسين آية، فعلينا أن ننتهج نهجًا جديدًا لكي ننقل معنى السورة إلى الإنسان المعاصر دون أن نطيل الوقوف على كلّ كلمة فيها. ولكن لكي نتجنّب أن نضيع الفائدة المتمثّلة في شرح الكلمات والتعبيرات، فسنرفق معجمًا للكلمات أو التعبيرات التي تستوقفنا.

إذًا، فسنقسّم الكلام إلى إضاءات لغويّة، ثمّ نضع معنى السورة في مقالة منثورة بلغة معاصرة، ثم نقدّم قراءة شموليّة للسورة.

إضاءات لغويّة

نون: حرف مقطّع، ومعناه لو جاء كلمة دواة الحبر، وهي مما يرافق القلم، فالقرآن هنا يذكر الدواة ثم يقسم بالقلم وعملية الكتابة.

مجنون: أي يعاني من علّة خفيّة، وهي من جنّ أي خفي، وتقال عادة فيمن ليس له عقل سويّ راجح.

الأجر غير الممنون: الأجر معروف، والمنّ هو ذكر الخير الذي قدّمه أحدهم. أمّا وقوفنا عليه فلأنّ في هذا التعبير

لفتة تعبيريّة جميلة، فالله قد ذكر الوعد بالأجر للرسول على حمله رسالته، فأتبعه مباشرة بكون هذا الأجر غير ممنون، أي إنّه مستحقّ لا يمنّه أحد عليك.

فستبصر ويبصرون بأيّكم المفتون: في العربية نقول تبصر كذا، وتبصر بكذا، وهما بمعنى قريب. والفرق في دخول حرف الجرّ يكون بلاغيًّا، فيكون الإبصار عين العلم لا مجرّد النظر ووقوع فعل الرؤية، والمفتون هو الذي تعرّض إلى ما حرفه عن الطريق القويم.

ودّوا لو تدهن فيدهنون: أي رغبوا في أن تتنزّل إلى دعواهم قليلا فتقبل منهم ما يريدون الإبقاء عليه، ليتراجعوا عن حربك ويقبلوا منك ما لا يتعارض معهم. والادّهان والمداهنة هما التصنّع وتكلّف التزيين، وهو أيضا اللين والتراخي.

عتلّ بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين: ينبغي عدم فصل المعاني في القرآن والظنّ أنّ الآية تستقلّ بمعناها عمّا حولها، والآيتان هنا يجب ربطهما معا لكي يتّضح المعنى. العتلّ الغليظ الفظّ، والزنيم الذي فيه علامة تفصله عن الآخرين، ومنها أنّ العرب تقولها في ابن الزنا، لكنّها هنا ملحقة بالميّزة التي يراها تفصله عن الآخرين وهي كونه

ذا مال وبنين، فالقرآن يجعل هذه العلامة كزنمة الشـــاة، وهي ما يتدلّى من حنك المعزى.

أسـاطير الأوّلين: أي ما سـطّره الأوّلون في الكتب، وليس بالضـرورة أن يكون خرافات، لكن موضـع الطعن هنا أنّه يرى أنّ النبيّ لم يأت بجديد يلتفت إليه.

سنسمه على الخرطوم: الوسم وضع علامة على الشاة أو الدابة بالنار، والخرطوم أنف الدابّة، وهذا الوسم يجتمع فيه أنّه مؤلم ومذلّ.

بلونـاهم كمـا بلونـا أصـــحـاب الجنّـة: أي اختبرنـاهم أو بالأحرى نختبرهم كما ســبق أن اختبرنا أصــحاب الجنّة، وهي مزرعة غنّاء.

ليصـــرمنّها: أي أن يقطفوها قطفا لا يغادر ثمرا يأكل منه المـارّة أو الـدوابّ والطير. والنون المشـــدّدة للتوكيـد، والصرمُ القطع، وهنا القطاف.

ولا يسـتثنون: أي لا يتركون منها شـيئا، أو لا يعلّقون ذلك بمشـــيئة الله بقولهم: إن شـــاء الله كما يظنّ أكثر القدماء، لكنّني أحبّ أن يعرف النـاس الرأي الـذي قدّمتـه وهو أنّـه الأمر متعلّق بكونهم لم يســتثنوا منها شـــيئا للاســـتدامة والتكاثر أو إطعام الطير والمساكين.

فطاف عليها طائف من ربّك: طاف أي جال وجاب ودار، أي أنّه لم يغادر فيها موضعًا، ولم يحدّد القرآن ماهيّة هذا الطائف فقد يكون حريقا أو داءً أو غير ذلك ممّا يصيب النبات.

حرثكم: زرعكم الذي تتمتّعون به، أو زرعكم الذي غرستموه.

يتخافتون: أي يتداولون أمرهم سرًّا.

وغدوا على حرد قادرين: أي ساروا غدوة (أي في الصباح) وقد استقرّ لهم أنّهم قادرون على تنفيذ مرادهم، والحرد العزم والقصد.

أوسطهم: أي أفضلهم أو أكثرهم عدلا وأصوبهم رأيًا.

لولا تسبّحون، سبحان الله: كله من الجذر سبح، وهو متعلّق بالحركة الدائمة، فالكواكب والنجوم تسبح في أفلاكها، والطير تسبح في الجوّ، والسمك يسبح في الماء، وكلّه يدور في فلك الحركة المستمرّة غير المنقطعة، وهنا معنى دقيق مركّب: دوران وعلوّ تدريجيّ، وكأنّه يصعد إلى الله لا بمعنى الصعود إلى السماء لكن بمعنى أن ينتمي للقدرة الكلّيّة. الذي يسبّح يعلّق الحوادث الكونية بحركة الكون وسبحه، ولا يحاول احتكار الخير أن يتحرّك بين الخلق، وهذا السبح من صفة الأفلاك التي ارتبطت قديما بالقدر

وقدرة الله، فكلمة ســـبحان الله تعني: تنزيه الله عن الجمود وعن منع الخير، وقد انتقلت لتصـــبح تنزيها مطلقًا له عن كلّ نقيصـــة مهما تكن. ومع الزمن والتداول اكتســب فعل التسبيح معنى ترديد كلمة سبحان الله.

إلى ربّنا راغبون: أي نطمع في راعينا فنحن منصـــرفون إليه بقلوبنا وفعلنا.

العذاب: من الجذر "ع ذ ب"، فنقول عذب الماء أي صـــفا من الشـــوائب، والتعذيب إلحاق عقوبة مؤلمة، وكلّه يدور حول فكرة التصـفية والتخليص من الذنب، فالعذاب عذوبة من الذنب الذي شاب الإنسان وخلاص له منه.

أفنجعل المسلمين كالمجرمين: الإضـاءة هنا أنّ ضدّ المسلم هو المجرم، والمسـلم كما ورد في الحديث من سـلم الناس من لسانه ويده.

أم لكم كتاب في تدرســون: الكتاب وغيرها من المشــتقات مثل كتبة (حلقة تدور حول عنق الكلب) كلّها من الجذر كتب المجاور لكبت، والكبت التحجيم، والبكت القطع، أمّا تسمية السجلّ بالكتاب فهي بسبب أنّ الكتابة تثبيت وتوثيق (لاحظ أن التوثيق من الوثاق أي القيد). ودراســـة الكتاب تقليبه وقراءته حتّى يضـــمحلّ الحبر الذي فيه فيدرس أي يمّحي.

يوم يكشف عن ساق: تقول العرب كشف فلان ركبتيه، أو كشف ساقه أي امتطى جواده للحرب، ويقولون كشفت الحرب عن ساقها أي اشتدّت. فالحديث عن يوم (طور) يعلن الله فيه الحرب عليهم.

أملي لهم إنّ كيدي متين: أملي هنا أي أعطيهم من ملاوة العيش، أمنه وسعته وخفضه، أي إنّ الله يوسّع عليهم في عيشهم الضالّ، وذلك تدبير من الله لأنّ الإنسان يعتبر بالمصيبة كما اعتبر أصحاب الجنّة المذكورون سابقا.

المغرم: عكس المغنم، فقد يكون دَيْنًا أو دية أو ثأرًا، وكلّ ذلك ممّا تحمّله رغمًا عنك.

الغيب: ما غاب، أي ما احتجب، والغيب ضدّ المشهود، وهو في مطلقه الجزء الغامض من الوجود.

صاحب الحوت: المقصود هنا عبد صالح أو نبيّ (يقال يونس) له قصّة يستشهد بها، فقد أصابته مصيبة كان فيها خلاصه، والجانب المستشهد به من قصّته هنا هو أنّه لم يصبر على قومه، وخرج من بينهم مغضبا قبل أن يأمره الله بذلك.

مكظوم: مهموم مكروب مغتاظ.

لولا أن تداركه نعمة من ربّه لنبذ بالعراء وهو مذموم: أي أنّه لولا أن تداركه الله بنعمة منه (وهو ربّه أي راعيه) لكان مصيره أن ينبذ في أرض مقفرة فلا يكون بين قومه، ولا يصل مقام النبوّة، ومذموم من الذمّ، أي أنّه كان ليستحقّ اللوم.

فاجتباه: أي اختاره واصطفاه.

يزلقونك بأبصارهم: أي ينظرون إليك شزرًا مظهرين غضبهم، فتحاول استرضاءهم فتزلّ أو تنزلق أو تنحرف عن الصواب الذي أتاك من ربّك. وفي هذه تجد كلامًا عجيبا عند أشياخنا المفسّرين يتعلّق بالعين والحسد، ولا أراه له وجها.

ما هو إلّا ذكر للعالمين: الذكر ما يدفع الناس للتذكّر والتذكّر عكس النسيان. وصيغة "ما هو إلّا" تكون في العادة للتهوين، فالقرآن يقول إنّ كون رسالتك ذكرًا لهو أهون الطرق وأوفقها، وأنّ التفكير في أنّ صاحب الدعوة مصاب بجنّة أو جنون لهو الطريق الذي فيه شطط ومبالغة.

مقالة السورة

أقسم بالقلم وبفعل الكتابة، الذي به تتكشف الحقائق وتتضح المعالم: إنّ هذا الرجل الذي بينكم وبينه ما بينكم من صلة ليس مختلّ العقل كما قد يدّعي معارضوه، بل هو ينعم بحكمة تسمو به عن سفاسف الأمور وترفعه إلى مستوى الإدراك العميق لحقائق الوجود. إنّ لك على ما تقدّمه من صبر عليهم أجر مستحقّ تقديرًا، وأجرك هذا يأتيك لا ننقص منه شيئا، لا بتقليله ولا بذكره وكأنّه منحة لك، وأقسم إنّك ذو أخلاق سامية وقيم رفيعة.

سيأتي وقت تتكشف فيه الحقائق للجميع، فيرى صاحب الفكر المستقيم صواب رؤيته، ويدرك المعارضون وَهمَ تصوّراتهم. عندها سيتضح من هو المفتون المنحرف عن جادّة الصواب. إن الله العليم بحقائق الوجود هو وحده الأعلم بمن ضلّ عن الطريق المستقيم ومن اهتدى إليه، فلا تطع الذين يكذبونك، ولا تظنّ بنفسك الظنون.

يتمنى المعارضون لو تتنازل عن مبادئك وتميل إليهم، فيبادلونك الميل والمداهنة. ولكن احذر أن تنصاع لكل من يكثر الحلف والقسم وهو في حقيقته مهين ذليل، يغتاب الناس وينقل بينهم النميمة، ويمنع الخير ويتعدّى حدوده، مترعرع في الإثم، غليظ الطباع، يظنّ نفسه متميّزًا بماله

وأبنـائـه. وحين تعرض عليه تعـاليم الله، يزعم أنهـا مجرد أســاطير قديمة، فســيترك هذا النهج وصــمة عار عليه في الدنيا، وعذابًا في الآخرة.

لقد اختبرنا المعارضـــين كما اختبرنا أصـــحاب المزرعة الذين أقسموا أن يقطفوا ثمارها في الصباح دون أن يستثنوا منها ما يترك للطير والدواب والمساكين، أو دون أن يعلّقوا عزيمتهم بمشــيئة الله، فحلّ بالحديقة عارض في الليل وهم نائمون، فأصبحت أرضا بلا ثمر ولا يرتجى منها ثمر بعد ذلك. وفي الصـــباح تنادوا: انطلقوا إلى حصـــادكم إن كنتم منفّذين لما تعاهدتم عليه. فذهبوا يتهامســـون فيما بينهم: لا تدعوا أيّ محتاج يدخل إليكم اليوم. وتوجّهوا متحمســـين واثقين من حصـــــادهم. فلما رأوا المزرعة وما حلّ بها، قالوا: لقد ضــــللنا عن طريق الصـــواب. ثم تيقّنوا: لا، بل نحن محرومون مما كنا نرجو بسبب فعل فعلناه.

قال أعدلهم: ألم أقل لكم: لولا تذكرون عظمة من هو أكبر منكم، فتتركوا شـــيئا للمســـاكين والطير، وتعلّقوا عزيمة ترضـــي الله بمشــيئته، قالوا معترفين: ســبحان الله، إنّا كنّا ظالمين. فأقبل بعضهم على بعض يتعاتبون. قالوا: يا ويلنا، إنا كنا متجاوزين للحدود. لعل راعينا أن يبدلنا خيرًا منها، إننـا إليـه منصـــرفون نراه المتحكّم بـأمرنـا. هكـذا تكون

العقوبة في الدنيا، ولكن عقوبة الآخرة أشد وأبقى، لو كانوا يعلمون.

إن للمتقين الذين يحاذرون الشــرور، ويلتزمون القيم العليا جنات النعيم عند راعيهم. أفنجعل المســالمين الملتزمين بالقيم كالمجرمين المعتدين؟ ما لكم؟ كيف تحكمون بهذا الحكم الجائر؟ أعندكم كتاب تدرســون فيه أن المســتقيم كالمنحرف؟ ألكم نظام تتفقون عليه فنقضــي لكم بما فيه؟ أتزعمون أن لكم فيه ما تختارون من الأحكام حســب أهوائكم؟ وتوثيق الحقوق ســيجعلكم تتجاوزن الأهواء اللحظية. أم لكم عهود منّا بأن نقدّم لكم ما تريده أهواؤكم؟ سل هؤلاء من يضمن لهم هذا الحكم الجائر؟ أم لهم شركاء يسندونهم فيما يحكمون به؟ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

يوم تشــتد الأمور وتنكشــف الحقائق، ويدعى الجميع للخضوع للحقيقة، فلا يكون بمقدورهم أن يختاروا الطاعة اختيارًا لأنّهم إذ ذاك مجبرون على ذلك. يومها ترى أبصارهم ذليلة منكسرة تغشاهم المهانة، وقد كانوا يدعون للإذعان للحق وهم سالمون قادرون قبل ذلك.

فاترك المكذّبين لي، ســأمدّ لهم في العيش اســتدراجًا لهم نحو العذاب. إنّ خطتي محكمة. فهل كنت تطلب منهم أجرًا على ما تقدمه من فكر، فهم من ثقل ذاك الحمل

متعبون؟ أم عنـدهم علم الغيـب فهم يكتبون ويســـطرون بأنفسهم؟

فاصــبر لحكم ربّك، ولا تكن كصــاحب الحوت الذي دفعه الهمّ لليأس من قومـه، فلولا أن تـداركتـه نعمـة من راعيـه لخســـر قومه ومكانته عندي وعندهم، فاصـــطفاه الله بأن يعاني فيختبر تعلّق قلبه بالله، فجعله من الصالحين.

يكـاد المنكرون للحقيقـة أن يـدفعوك للانحراف عن درب الهدى إذ تؤثّر فيك نظراتهم المتوعّدة أو المســـتخفّة حين يسمعون دعوتك، ويقولون إنه مجنون. وما هذا الكتاب إلا تـذكرة للنـاس أجمعين، وهـذا أهون التفســـيرات وأقربهـا للصواب.

المعنى الشموليّ

إنّ الله يعظّم الكتابة إذ يقسم بها وبأداتها، وقسمه للنبيّ حتّى لا يصـل الشـكّ إلى قلبه بأنّه نبيّ وأنّ نبوّته نعمة من الله له وللناس، وســـيأتي يوم تظهر فيه الحقيقة، ثمّ يحذّره من أن ينزلق إلى مـا يطلبونـه منـه من تنـازلات واعـدين إيّـاه بتنازلات مقابلـة وحلّ بين هذا وهذا، فهؤلاء لا يؤمن لهم بـدليـل أخلاقهم الظـاهرة للنبيّ من نميمـة وهمز وظنّ بـالتميّز. هؤلاء لهم منّـا خزي الـدنيـا وعذاب الآخرة، ومـا

جعل الإنســـان يضـــلّ إلّا ظنّه أنّه اســـتغنى عن التراحم وقراره بألّا يتقي الله. كما حدث مع أصـــحاب الجنّة الذين نسوا إرادة الله فأرادوا أن يحرموا الآخرين من الخير الذي أنعم الله به عليهم وعلى غيرهم، فكان تذكير الله لهم بأن أحرق لهم جنّتهم، فاستيقظوا حينها من ضلالهم وتابوا لله. لكنّنا قد نعطي للمكذّب حياة تغرّه فلا يتوب، لكي يكون له عذاب دائم وخزي على المدى الطويل، فقد دعي وهو قادر على التوبة فلم يتب، فهيهات أن تقبل منه توبة إذ لم يعد أمره بيده يوم القيامة. فلتترك أمر المكذّبين لي ولا تلتفت لهم ولا تحاول استرضاءهم ولا يتسرّب لك الشكّ بسبب ما يقولونه، فإذا رأيتهم ينعمون بحياة يحبّونها فاعلم أنّ هذا كيد من الله لكي يســـتحقّوا العذاب، وإيّاك أن تكون كيونس بن متّى الذي يئس من قومه وتركهم قبل أن يأذن الله له، فتاب قومه قبل عذاب الله، إذ كاد ليســتجلب غضـــب قومه وغضب الله، لولا أنّ الله اختبره في موضع آخر فوجد قلبه متعلّقا بالله فأعاده نبيًّا مكرّمًا في قومه. ومع أنّهم كادوا ليحرفوك عن جادّة الصـواب باسـتخفافهم بك وما تسـرّب إلى قلبك من الشكّ، فاعلم أنّ الجنون الذي يتحدّثون عنه له أعقد تفسيرا من أنّك ببساطة نبيّ الله.

بهذا الاختصار وهذا التجاور للمعاني تجد أن روح السورة يدور حول تثبيت قلب النبيّ والتأكيد على أهمّيّة الميثاق

الجمعيّ الـذي يريـد الله أن يبثّـه النبيّ بين القوم، وأنّـه لا يجوز أن يتسرّب الشكّ إلى قلب المصلح في نفسـه، أو أن يبدّل في ما يعرفه من الحقّ لكي يســتجلب قلوب النـاس ويستميلها، وأنّ الحياة الناعمة ليست دليلا على أنّ صاحبها على صــواب، بل قد يكون غياب المصــيبة مصــيبة إذ لا يقف الإنســان ليراجع نفســه، وهكذا فعليك أن تلتزم الحقّ الذي تعرف ولا تتأثر بما يقولونـه، وإنّ ما ينكرونـه عليك أمر معروف فقد كان ثمة رسـل من قبلك مرّوا بما مررت به.

مقالات القرآن العظيم 5 | المزّمل

مرّ بك حتّى الآن حسب ترتيب النزول سورتان، الأولى هي العلق وفيها نزول الرسالة على الرسول وتحضيره للتعامل مع المكذّبين بصورة عامّة، والثانية القلم وفيها التصدّي للشكّ الذي يتسرّب إلى نفس النبيّ من استهزاء القوم برسالته.

هنا نحن على مشارف سورة المزّمل، وفيها سنرى ردّ فعل آخر من الرسول إذ ينطوي على نفسه، فهو لم ييأس كما فعل صاحب الحوت الذي ذكرت السورة قصّته، لكنّه حسب ما يرويه أصحاب أخبار أسباب النزول شقّ عليه ما قاله بعض من دعاهم، لا سيّما السادة منهم الذين كانوا ليكونوا استثمارًا عظيمًا لو اتّبعوه وهم في منزلتهم من قومهم. فكان من تفاعل ذلك في نفسه أن انطوى بعض الشيء وتلفّع في ثيابه، فنزلت هذه الآيات تعلّمه كيف يتعامل مع ما يواجهه وما يختلج في نفسه.

وأثناء قراءة السورة يمكنك مراجعة الإضاءات اللغوية ليتحقّق لك الفهم الأوّليّ للآيات متفرّقة، ثمّ تنتقل إلى مقالة السورة، ثم إلى معناها الشموليّ. ولكن قبل ذلك علينا أن نوضّح أحد المفاهيم المركزية التي ستتكرّر في القرآن، وهي الكفر، وستلاحظ أنّ الكفر ليس مكافئا للتشكّك

بالرســـالة، بل هو التغطية على الدعوة وكبحها ومنعها والتشويش عليها، وهي ليست صفة من يدعوهم الرسول إلى الله، بل صفة مجموعة جزئية منهم ممن يسخرون منه من أسياد قريش الذين يتّبعهم الناس.

إضاءات لغويّة

المزّمّل: من الجذر "ز م ل" الذي يدل على الاجتماع والالتفاف، والتزمّل هو التلفّف بالثياب والتدثّر بها، وقد تأتي بمعنى الانكماش على الذات واختيار العزلة والانطواء.

قم الليل: من القيام وهو هنا ضدّ النوم، والمراد هنا اليقظة والنشاط في ساعات الليل. والقيام قد يكون للعبادة أو للتأمل أو للتهجّد.

رتّل القرآن ترتيلًا: الترتيل من "ر ت ل" وفيه معنى التقطيع الانتظام والتناسق. ترتيل الكلام هو إخراجه بتؤدة وتأنٍّ مع تبيين الحروف والكلمات وتدبّر المعاني، لا الترديد السريع. والترتيل يتضمّن الفهم، ولك أن تلاحظ هنا أنّ ما نزل من القرآن لم يكن سورًا كثيرةً، لكنّه يطالب النبيّ بإعادة قراءتها لأنّ فيها ما يردّ على ما يعانيه الرسول.

قولًا ثقيلًا: الثقل ضدّ الخفة، والمراد هنا المسؤولية الكبيرة والمعرفة العميقة التي تتطلب جهدًا لاستيعابها وحملها.

ناشـــئة الليل: من "ن ش أ" وفيه معنى البدء، وهنا تعني بداية الليل، أو المقصود بها قيام الليل نفسه، فهذا ثلث الليل الأوّل، مع ابتداء الهدوء وشعور الطمأنينة التي يصاحبه.

أشـــد وطئًا: الوطء هو الضـــغط ويكون عادة بالقدم على الأرض، والمراد هنا الأثر الذي يتركه. أي أن ســـاعات الليـل الأولى أكثر فعلًا في النفس وأعمق أثرًا، وقيـامهـا أصعب إذ يناديك جسمك للراحة.

أقوم قيلًا: القيل هو القول، وأقوم أي أكثر استقامة وتناسبًا، أي أنّ الفهم الذي سيحقّقه القيام في هذه الساعات أكثر قربًا لحقيقة الكلام.

سبحًا طويلًا: السبح من "س ب ح" وهو الحركة المستمرّة وقد تطرّقنا إليه في تسـبيح وسـبحان، والمراد هنا النشـاط المتواصل والحركة الدائبة.

تبتّل إليـه تبتيلًا: من "ب ت ل" وهو القطع والفصـــــل، والتبتّل هو الانقطاع إلى الله وترك ما ســواه. وهو أيضًـــا الإخلاص في التوجّه.

اهجرهم هجرًا جميلا: الهجر الترك والمقاطعة، ولكنّه هنا هجر جميل، فقد يفهم على أنّ فيه حفاظًا على خيط ما من العلاقة، أو أنّه يأتي للحفاظ على صـلة قرابة أو صـداقة قديمة.

ذرني والمكذبين أولي النعمة: أي اترك أمر عظماء القوم ممّن يكذّبونك لي. وربّما في هذا لفت للرسـول أن يدعو الناس الآخرين من غير هؤلاء، لكنّه ليس أمرًا مباشـرًا بعد.

أنكالًا: جمع نِكل، وهو القيد الثقيل الذي يمنع الحركة، وأصله من النكول وهو الامتناع.

ذا غصّـة: الغصـة هي ما يعترض في الحلق من طعام أو شـراب فيمنع البلع، والمراد هنا صـورة بلاغيّة تقول إنّه يعدّ لهم أمرًا لا يسـرّهم، وقد يفهم بطريقة أكثر مباشـرة على أنّه ممّا تحتويه الجحيم من طعام ستَرد صفات أخرى له لاحقًا في القرآن.

ترجف الأرض: الرجف هو الحركة الشديدة والاضطراب، ومنه الرجفة وهي الزلزلة.

كثيبًا مهيلًا: الكثيب هو الرمل المتراكم، والمهيل من الإهالة وهي الانهدام. أي أن الجبال الراسـخة تتحول إلى رمال متناثرة.

فرعون: عظيم قومـه، وهي لا تـدلّ بـالضـــرورة على حضـــارة وادي النيل كما يفهم أكثر الناس. وهي من الفرع والشـــجرة ذات الفروع تطغى على غيرها فتحجب عنها ضوء الشمس.

وبيلًا: من "و ب ل" وفيه معنى الشدّة والتتابع، ويقال وبالًا أي عاقبة سوء، والوبيل هو الشديد الصعب الذي لا يُطاق.

فكيف تتقّون إن كفرتم يومًا يجعل الولدان شـــيبا: وهذا ظاهره السؤال ومعناه الاستنكار، أي إنّكم إذا كفرتم والكفر هو التغطية أي منع الناس حقّهم وسـلبهم إرادتهم، والكلام هنـا عن أصـــحـاب النعمـة الـذين يطغون على غيرهم ويكفرونهم حقّهم، فإنّكم لن تحموا أنفسـكم من شـرّ يوم هو آتيكم، وهذا اليوم فيه من الأهوال ما يشيب رأس الأولاد.

السـماء منفطر به: الانفطار هو الانشـقاق، والسـماء كأي مؤنّث معنويّ يمكن أن تذكّر أو تؤنّث، وتذكيرها هنا نوع من تصـــويرها بصـــورة أقوى ففي التذكير قوّة في كلام العرب، وكلمة به أي بسبب ذلك اليوم، أو في ذلك اليوم.

اختلاف في الآية الأخيرة: الآيـة الأخيرة في طولها وفيما تنـاولتـه من أحكام وفي حديثها عن القتال في ســـبيل الله يظهر فيها ســـمات القرآن المدنيّ، وقد أســـلفنا أنّ جمع الآيات في ســـور تأخّر حتّى عهد جمع المصـــحف، وفيها

دليل على كونها متأخرة في النزول بأنّها تتحدّث عن طائفة من الذين معه أي أنّ مع الرســول وقت نزولها خلق كثير، وقد ورد في قول المفسّــرين أقوال تدلّ على قيام الليل مدّة عام، فهي لم تنزل وقت نزول ما سبقها من آيات السورة، وليست تنتهي بالصوت المنتظم في السورة.

أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة: لقد سبق أن تطرّقنا إلى معنى الصــلاة في ســورة العلق وعرفنا أنّها أشــمل من الطقس المعروف من تكبير وقراءة وركوع وســجود، ولاحظ أنّها تقام إقامة كما تقام الصلة، أمّا الزكاة فمن الجذر "ز ك و" وفيه معنى انتشـــار الرائحة الطيبة والطهارة، فالطعام الزاكي هو الطعام الطيّب الطاهر المنتشــر الريح، أمّا هذه فتعطى، وهذا فيه صورة بيانية جميلة، فما تؤدّيه من مالك أو جهدك تزكية فهو كالرائحة الطيبة التي تنتشـــرها وهي تطهّر ما بك من نعمة.

مقالة السورة

يا من انطويت على نفســك وقرّرت أن تخلو إلى الله أطول قدر ممكن من الليل، اترك نصيبا من الليل لراحتك، فعليك قيام نصــفه تقريبا أقلّ أو أكثر، وعليك إذ ذاك أن تتدبّر ما نزل عليك من القرآن. واعلم أنّ الله يوحي لك بقول قد تراه

صـعبًا على نفسـك، إنّ سـاعات الليل الأولى، بما تحمله بداية السـكون، هي أشـد تأثيرًا في النفس وأكثر ملاءمة للتأمّل العميق، وهي أكثر استقامة في الصلة ما بين الفكر واللسان.

لذلك عليك إراحة جسـمك. لك في النهار مهمّة صـعبة سترى معها النهار أطول من المعتاد، إذ ستسعى فيه سعيًا طويلا عظيمًا، ولا ينسينّك سعيك الانقطاع إلى الله والخلوة له، واعلم أنّ ربّك ربّ النهار والليل، فلتتوكّل عليه دائما. أمّا من يهاجمونك فعليك أن تثبت أمام أقوالهم، وعليك أن تهجرهم هجرًا لا يكون فيه قطيعة كلّيّة. أمّا أسـيادهم ممّن أنعمت عليهم فهؤلاء اتركهم لي، إنّ عقابهم عليّ أنا، ولديّ من وسـائله ما يضـمن لهم عذابًا أليما، وذلك يوم القيامة الذي سـترى أنّ الجبال لا تصـمد أمام أهوال ذلك اليوم، فهل سيصمد هؤلاء!

يا هؤلاء ممّن أنعمت عليهم، لسـتم بدعا من الخلق، فقد أرسـلنا من قبل رسـولا إلى من هو أقوى منكم وهو فرعون، فلمّا كذّب الرسـول أخذناه بعذابنا فلم تدم عليه النعمة، فإذا أصررتم على التغطية على الحقّ الذي نخاطب به الناس والتشـويش عليه، فمن سـينقذكم من أهوال يوم القيامة التي لا تصمد لها السماء على عظمتها. هذه الرسالة تذكير لكم، فمن شاء منكم فليلحق بها وليتّبع النبيّ.

إنّ الله الذي يرعاك يعلم أنّك وطائفة ممن معك تكثرون القيام بالليل حتّى إنّكم لتبلغون ثلثي الليل ولا تريحون أبدانكم، فاعلم أنّ الليل والنهار كل منهما لله، وهو يعلم أنّ تحديد ورد يوميّ من القراءة وساعات قيام دقيقة أمر يستحيل عليكم، ولذلك فهو يعفيكم من هذا الالتزام، فعليكم أن تقرؤوا ما كان يسيرا عليكم، وفوق ذلك فإنّ منكم المرضى، ومن له معايش في النهار واكتساب للرزق أو قتال في سبيل الله، فالفرض هو أن تقرؤوا ما كان يسيرا عليكم، وأن تديموا هذا التواصل بينكم وبين الله، وبينكم وبين بعضكم، وأن تؤدّوا الزكاة وهي إحسان يزكّي ما لكم، ولتنظروا للمال والجهد الذي تقدّمونه على أنّه قرض تقرضونه لله الغنيّ لكي يعيده لكم خيرا منه وفوق ذلك لكم أجر عليه، واعلموا أنّكم إذا شعرتم بالتقصير فليس عليكم سوى الاستغفار والله يغفر ويتلطّف بكم.

القراءة الشمولية

تكشف سورة المزمل عن منهجية متكاملة للتوازن بين الخلوة الروحية والمواجهة المجتمعية. تبدأ بالبعد الشخصي من خلال قيام الليل والتزود الروحي، لتمهد للبعد المجتمعي المتمثل في مواجهة التحديات في النهار. هذا التناوب بين الخلوة والمواجهة ليس مجرد تقسيم للوقت،

بل اســتراتيجية متكاملة تجمع بين القوة الروحية والفاعلية المجتمعية.

السـورة تقدم أيضـًا منهجية دقيقة للتعامل مع المعارضـين: ثبات أمام أقوالهم، مع هجر لا ينطوي على قطيعة كاملة، وتفويض أمر بعضـهم إلى الله. هذا الفصـل بين من تجب مواجهتهم ومن يُفوَّض أمرهم يعكس حكمـة في توزيع الطاقة وتحديد الأولويات. التذكير بتجربة فرعون يضـيف بعدًا تاريخيًا يؤكد أن مصير المتكبرين المتنعمين محتوم.

تختتم الســورة بتأكيد مبدأ المرونة المنضـبطة: الاكتفاء بقراءة "ما تيسر" مع الحفاظ على جوهر التواصل مع الله والناس. وتراعي ثلاث فئات: المرضـى، والمسـافرين طلبًا للرزق، والمجاهدين، مما يعكس واقعية المنهج وقابليته للتطبيق في مختلف الظروف. الإشـارة إلى الاسـتغفار في الختام تجعل المنهج كله قابلًا للتصحيح والتعديل المستمر، ليظل حيًا متجددًا مع تجدد التحديات.

مقالات القرآن العظيم 6 | سورة المدثر

بعد أن رأينا في السور السابقة كيف نزل الوحي على الرسول في سورة العلق، وكيف واجه التكذيب في سورة القلم، ثم كيف تعامل مع ضغط المواجهة بالاعتكاف في سورة المزمل، نأتي الآن إلى سورة المدّثر التي تمثل مرحلة جديدة في الدعوة. وإذا كانت المزمل تخاطب النبي في حالة التزمّل معتكفًا في برد الليل في صلاته وتخبره أنّ مقياس القرب من الله يكون بترتيل القرآن وتدبّر ما تيسّر منه في جزء من الليل يحافظ على وقت راحة البدن، فإنّ سورة المدثر تخاطبه في حالة التدثّر استعدادًا للنهوض والمواجهة.

وقبل أن نبدأ في تحليل السورة، يجدر بنا أن نفهم الفرق بين التزمل والتدثر. فالتزمل من الجذر "ز م ل" يدل على الانضمام والتجمع، وهو حالة دفاعية يلجأ إليها الإنسان للحماية. أما التدثر من الجذر "د ث ر" فيدل على التغطية الواسعة، وهو أقرب إلى حالة الاستعداد منه إلى الانكماش. والدثار في العربية ما يُلبس فوق الشعار (الثوب الملامس للجسد)، والدثار ثوب للخروج والمواجهة.

إضاءات لغويّة

يجب التوقف عند عدد من المفردات والتراكيب المهمة في السورة لفهم معانيها وتطور دلالاتها.

المدثر من الجذر "د ث ر" وفيه معنى التغطية الواسعة والستر. والدثار ما يُلبس فوق الثياب القريبة من الجسم للتهيؤ والاستعداد. وفي العربية يُقال تدثّر للأمر أي لبس له لبوسه أي استعدّ له، وأشهره قولهم تدثّر الرجل فرسه أي ركبها.

أنذر: من الجذر "ن ذ ر" وفيه معنى الإعلام بالخطر المتوقّع والتحذير منه. والنذير هو المخبر بما يجب الحذر منه. والقيام المقترن به يتجاوز المعنى المادي إلى معنى النهوض للعمل والدعوة.

كبّر: من الجذر "ك ب ر" وأصله يدل على العظمة والعلو. وتقديم "ربك" على فعل التكبير يفيد الحصر والتخصيص، أي اجعل التعظيم لربك وحده. والرب هنا يشير إلى معنى الرعاية والتربية، أي اعلم أنّ ربّك أكبر منهم.

طهّر: من الجذر "ط ه ر" وفيه معنى النقاء والنظافة المادّيّة والمعنويّة. والثياب في العربية قد تكون كناية عن النفس، كما في قول العرب "ثوبها طاهر" للدلالة على العفّة.

الرجز من الجذر "ر ج ز" وفيه أقوال بأنّه يدلّ على الصنم، ولا نفهم كيف يطلب الله من الرسول هجر الأصنام وكأنّه وصلها! لكنّ أصله اللغويّ يعني كلّ خبيث ويستخدم في وصف مرض يصيب الناقة فلا تستطيع السير (ناقة رجزاء: أي تضطرب أرجلها)، وهو عمومًا الاضطراب والقلق، وهو كلّ أمر شديد ينزل بالناس أو النفس.

لا تمنن تستكثر: أي اترك المنّ من الجذر "م ن ن" والمنّ ذكر النعمة على سبيل التفضّل، والاستكثار طلب الكثرة أو الإحساس بها. والمعنى المركّب هنا نهي عن أن ترى أن ما تفعله كثير عليهم. أو لا تطلب أكثر ممّا أعطيت، أو لا تمنن على الناس بما تعطيهم طمعًا في المزيد.

نقر في الناقور: وهي من الجذر "ن ق ر" وهو الصوت الناتج عن النقر. والمراد هنا إعلان يوم القيامة. وفي اختيار هذا اللفظ دلالة صوتية على شدة الصوت وقوة تأثيره إذ يفهم بعض الناس الناقور بمعنى القلب.

العنيد من الجذر "ع ن د" وهو الميل عن الشيء مع العلم بأنّه حقّ. وهو أشد من مجرد المنكر، لأنه يعرف الحقّ ويصرّ على مخالفته.

سأرهقه صعودا: الرهق شدّة التعب، والصعود الارتقاء. والمراد في السياق عذاب شاق مرهق متصاعد. وفي اختيار هذا اللفظ إشارة إلى تدرج العذاب وتصاعده.

عليها تسعة عشر: ثمّة أرقام في العربية تكون للتكثير، فالسبع للكمال، وتسعة عشر هنا لإظهار الكثرة.

طول الآية رقم 31: نرى هذه الآية أطول من غيرها، بل إنّ فيها إشارة إلى ما ورد سابقًا في الآيات وكأنّها تتحدّث عن السورة من خارجها، ويغلب على الذهن أنّها مدنيّة ألحقت فيما بعد بالسورة وضمّت إليها عند جمع القرآن، ففيها أنّ تعداد ملائكة العذاب في الآية التي سبقتها ليست إلّا اختبارًا للناس، وهذا يستبعد أن يكون في متن ما تلاه الرسول أوّل الأمر.

ملائكة: جمع ملاك، والملاك ما كان ضمن ملك الله، فالملائكة هم من يكلّفهم سيّدهم بنطاق ملكيّة محدّد، فقوّته من قوّة سيّده.

المؤمن: من الأمن، وهو ضدّ الخوف، والمؤمنون من تعاهدوا على أن يؤامنوا بعضهم بعضًا، والمؤمن الواحد منهم، وهو من أسماء الله بمعنى الذي يعطي الأمن، وفي الحديث: المؤمن من أمنه الناس.

اليقين: من الجذر يقن وفيه معاني العلم والاستقرار وانتفاء الشكّ، وهو غالبًا الحقيقة التي لا يدركها الإنسان إلّا عند موته وبعثه، وبهذا سمّي الموت يقينا لأنّه آت لا محالة ولا شكّ فيه، ولأنّ بعده علم لا يتغيّر.

وهو أهل التقوى وأهل المغفرة: أي أنّه مستحقّ أن يخشى عذابه، وأنّه في الوقت ذاته قادر على المغفرة راغب بها.

مقالة السورة

يا أيها المتدثر في ثيابك استعدادًا للأمر، انهض وأنذر قومك، وخصّ ربك وحده بالتعظيم، فلا يعظم في قلبك أمر قومك وتكذيب كثير منهم لك، وطهّر ثيابك ونفسك، واهجر كل ما يقلقك ويثير اضطرابك. ولا ترى أنّ ما تفعله كثير على هؤلاء، واستجمع صبرك في انتظار ما يقضيه ربّك. فحين يأتي يوم القيامة، سيكون يومًا شديدًا على الكافرين، لا يجدون فيه راحة ولا يسرًا.

واترك أمر المعاندين من السادة لي وحدي، لا سيّما من مددت له في ماله، وجعلت له أولادًا يشهدون مجالسه ويكونون شهودًا عليه، ومهّدت له طريقه إذ كرهت أن يستيقظ من غفلته. ومع كل هذا يطمع في أن يستزيد من خيري في الآخرة كما أعطيته في الدنيا، كلّا، لا أفعل، إذ

إنه يعلم الحقّ ويعاند فيه. سـأرهقه عذابًا شـاقًّا متصـاعدًا. إنّه تدبّر أمر دعوتك، فرأى فيها الحقّ ثمّ تخيّل عاقبة الأمر فلم ترق لـه، فالهلاك لـه بما فكّر! ثمّ أعرض متكبرًا، فقال: ما هذا إلا سـحر منقول عن السـابقين غير منتشـر بين الناس، ما هذا إلّا كلام بشر.

سـأدخله نارًا لا يمكنك أن تتصـور شـدتها. وما يدريك ما هي؟ إنها لا تترك شـيئًا إلا أهلكتـه، ولا تـذر أحدًا ممّن يدخلها إلّا أحرقته، تغير لون البشرة وتسوّدها. عليها تسعة عشر حارسًا.

وما جعلنـا حراس النـار إلا ممن نملك أمرهم، وما جعلنـا عددهم هذا إلا اختبارًا للذين كفروا، وليستيقن أهل الكتاب، فهو عدد يعلمه علماؤهم، وبه يزداد المؤمنون إيمانًا، ويزداد المشكّكون تشـكيكًا، يقولون: ماذا أراد الله بهذا العدد؟ هكذا يضـل الله من يشـاء ويهدي من يشـاء. وما يعلم جنود ربك وعددهم إلّا هو. وما هذا كلّه إلا تذكير للبشر.

كلّا! أقسم بالقمر، والليل إذ ولّى، والصبح إذا أضـاء (وهنا ثمّة صـورة بلاغيّة بتشبيه الدعوة بالصـبح المضـيء، وبما بقي من الحقّ بين النـاس بـالقمر المنير) إنّ بعثتـك لأمر عظيم، ودعوتك إنذار للناس، لمن شـاء من الناس أن يتقدم نحو الخير أو يتـأخر عنـه. كل نفس أسـيرة العطاء الذي

أعطاها الله، إلا الذين سيكرمهم الله يوم القيامة، فعطائي لهم غير محدود، سيكونون في جنّات يسألون المجرمين: ما الذي أدخلكم في عذاب الله وسخطه؟ بعد أن أنساهم النعيم صعوبات الدنيا، فيجيب الكافرون: لم نكن نتعهّد ما بيننا وبين الناس والله من صلة بالرعاية، ولم نكن نطعم المحتاجين، وكنّا نترك أنفسنا لتأثير الناس من حولنا، فكذّبنا بيوم القيامة، ولم نصدّق أن لكل فعل جزاء، حتّى علمنا اليوم أنّ هذا هو الحقّ اليقين.

ومع أنّهم أدركوا وصدّقوا اليوم، فلن نقبل أن نغفر لهم ذنبهم بدعوى من يتشفّع لهم. فما لهم معرضين عن هذه الرسالة، هاربين منها كأنهم الحمير الوحشية إذ تفرّ من أسد. فهل يريد كل واحد منهم أن تأتيه رسالة خاصّة به وحده! كلّا! إنّ الأمر لا يتعدّى أنّهم لا يخافون الآخرة. إن هذا القرآن تذكير للناس، فمن شاء ذكر ربّه واتّعظ بأمره. أمّا هؤلاء فلن يتذكّروا إلّا أن يشاء الله أن يفرض الهدى عليهم فرضًا. والله هو أهل أن يُتّقى، وأهل أن يغفِرَ للناس ذنبهم.

القراءة الشمولية

تقدم سورة المدثر مرحلة جديدة في مسار الدعوة، تنقل النبي من حالة التزمل التي كانت تعبر عن الانطواء والاعتكاف، وتطلب من الرسول إراحة بدنه، إلى حالة التدثّر التي تمثل الاستعداد للمواجهة والعمل. وتؤسس السورة منهجًا متكاملًا للدعوة يقوم على التوازن بين القوة والحكمة.

تبدأ السورة بستة أوامر متتالية تشكل أساس العمل الدعوي: القيام للإنذار، وتعظيم الله وحده، وتطهير النفس والثياب، وهجر ما يثير القلق والاضطراب، وعدم التركيز على عدم استحقاق بعض الناس الخير المتمثّل في هذه الدعوة، والصبر في انتظار حكم الله. وتأتي هذه الأوامر متتابعة بصيغة الفاء التي تدل على السرعة والتعقيب، مما يشير إلى وحدة هذا المنهج وترابطه.

ثم يأتي نموذج المعاند الذي يمثل نمطًا من المعارضة يقوم على العناد مع المعرفة. فهو لم ينكر لجهل، بل عرف الحق ثم عانده. وتكشف السورة عن مراحل هذا العناد: من التفكير والتقدير، إلى رؤية الحق، ثم رفضه تكبرًا، وأخيرًا محاولة تبرير هذا الرفض بادعاء أن القرآن سحر أو كلام بشر.

تربط السورة بين النعمة والمسؤولية، فكلما زادت النعم على الإنسان زادت مسؤوليته. وتبين أن الطغيان يبدأ من إنكار هذه المسؤولية، وظنّ أنّ الفضل الذي أنعم الله به عليه إنّما هو أمر مطّرد في الآخرة كما الدنيا. وتقدم نموذجًا للعقاب يتناسب مع الذنب: فمن تكبر في الأرض سيرهقه الله في تصاعد العذاب له في النار.

تكشف السورة عن سنّة إلهية في الابتلاء، حيث يجعل الله بعض الأمور - مثل عدد الملائكة - فتنة للناس. فيزداد المؤمن إيمانًا، ويزداد المرتاب ارتيابًا. وهذا يؤكد أن الهداية والضلال مرتبطان بموقف الإنسان من الحقّ.

وتختم السورة بتحديد أسباب الهلاك في أربعة أمور: ترك الصلة بالله والناس، ومنع العون عن المحتاجين، والانسياق مع التيار دون تفكير، وإنكار المسؤولية عن الأعمال. وتؤكد أن هذا القرآن تذكرة للجميع، لكن الاستفادة منه مرتبطة بمشيئة الله التي تتناسب مع استعداد الإنسان وموقفه من الحق.

مقالات القرآن العظيم 6 | سورة المسد

تأتي هذه السورة القصيرة في سياق المواجهة المباشرة مع معارضي الدعوة، وتحديدًا مع عم النبي أبي لهب الذي كان من أشد المعارضين للدعوة. وهي تمثل نموذجًا فريدًا في القرآن إذ تذكر شخصًا بعينه وزوجه وتتوعدهما بالعذاب.

لا نشكّ أنّ الآيات السابقة إذ ذكرت أنماطًا من سادة قريش من ذوي النعمة كانت تحيل إلى أناس بعينهم أيضًا، لكنّها لم تذكرهم صراحة، ثم أتت سورة المسد لتصرّح بشأن إنسان بعينه، وهو عمّ النبيّ، وهذا من أكثر ما يدفع من آمن بالرسول للاطمئنان، ومن أكثر ما يدخل الرعب في قلوب المعاندين، فها هو أحد سادة بني هاشم قوم الرسول يتلقّى التهديد المباشر، ويطرد من أي احتمال للعودة والتوبة. فهو أدعى أن يطمئن المصدّقون إلى صدق النبيّ أكثر، إذ لم يجامل عمّه، وأدعى أن يرعب المخالفين من السادة الذين لهم قسوة أبي لهب وعدوانهم على النبي كعدوانه لكن ليس بينهم صلة القرابة التي له.

إضاءات لغويّة

- تبّت: من الجذر "ت ب ب" الذي يدل على الخسران والهلاك. والتباب الخســـران المطلق، وتكرار الفعل (تبّت... وتبّ) يؤكد شمول الخسران وتحققه.
- أبو لهب: كنية عبد العزى بن عبد المطلب، وقد عرف بها لحمرة وجهه وإشراقه، واللهب من الجذر "ل ه ب" الذي يدل على توهج النار واشتعالها.
- ما كســـب: الكســـب من "ك س ب" وهو تحصـــيل الشـيء بالسعي في الأصل ولكنّه قد يعني عموم ما ملكه الإنســـان بســـعي أو دون ســـعي. وهو أعم من المال، فيشمل النفوذ والأتباع والجاه.
- ســيصــلى: من الجذر "ص ل ي" وهو مقاربة النار ومعاناة حرها. والصلي أشد من مجرد دخول النار، فهو يتضمن معنى الملازمة والمعاناة.
- حمّالة الحطب: صيغة مبالغة من حمل، والحطب ما يوقد به النار. وفي وصفها بحمّالة الحطب استعارة لنقلها النميمة وإيقادها نار العداوة.
- جيد: العنق، وخص الجيد لأنه موضـــع الزينة والجمال عند النساء.

- مسد: من "م س د" وهو الفتل الشديد، والمسد الحبل المفتول بقوة، وقد يكون من ليف النخل أو من المعدن.

مقالة السورة

تأتي هذه السورة لتعلن هلاك وخسران أبي لهب، عم النبي وأحد أشد معارضي الدعوة. وتؤكد أن هذا الهلاك واقع لا محالة بتكرار الفعل في صيغتين: الماضي والمستقبل. ثم تنفي أن يكون ماله أو ما حققه من مكانة ونفوذ قادرًا على حمايته من هذا المصير.

وتنتقل السورة لتصف مصيره في الآخرة، حيث سيعاني من نار شديدة الاشتعال، في مفارقة لغوية مع كنيته (أبو لهب). ولم تقتصر السورة على ذكره وحده، بل شملت زوجته التي كانت تشاركه في معاداة الدعوة. وصورتها في مشهد يناسب دورها: تحمل الحطب الذي يزيد النار اشتعالًا، في إشارة إلى دورها في نشر النميمة وإثارة العداوة. ويكتمل المشهد بوصف الحبل المفتول بقوة الذي يلتف حول عنقها، في تصوير يجمع بين الإذلال والعقاب.

القراءة الشمولية

تقدم السورة نموذجًا للمواجهة المباشرة مع معارضي الدعوة، وتكشف عن سنة إلهية في أن القرابة لا تحمي من

العقاب، فأبو لهب رغم كونه عم النبي لم يشفع له ذلك. كما تبين أن المال والنفوذ لا يغنيان عن صاحبهما شيئًا أمام العدل الإلهي.

وتظهر السورة أن المعارضة للحق قد تكون مشروعًا مشتركًا، فالزوجة شريكة في المصير كما كانت شريكة في المعارضة. وفي اختيار التعبير بحمل الحطب إشارة إلى أن إثارة العداوات والنميمة لا تقل خطورة عن المواجهة المباشرة.

وتؤسس السورة لمبدأ مهم في الدعوة: أن المواجهة مع المعارضين قد تتطلب أحيانًا التصريح والمباشرة، خاصة حين يكون المعارض معروفًا بموقفه العدائي الواضح.

مقالات القرآن العظيم 7 | سورة التكوير

سور القرآن السابق تناولها (باستثناء المسد) التي قربنا معانيها للذهن المعاصر كانت، كما توضّح في المقالات السابقة، تتحدّث مع النبيّ ومع تفاعله النفسيّ لدى رؤيته ردّة فعل كبار قريش على دعوته، فتدعوه لأن يريح جسمه، لكي ينشط في الدعوة، وأن يترك أمر كبار قريش لله يتكفّل بهم، وتُغلظ في التوعّد لهم، وأحيانا تلمّح إلى شخوص محدّدة، حتّى جاءت سورة المسد فوجّهت وعيدًا مباشرًا وطردًا من الرحمة لأبي لهب، الذي لو كان أحد ممن أغلظوا على الرسول بأفعالهم وأقوالهم لينجوَ لكان هو، وذلك بسبب صلة القرابة التي يمتّ بها إلى الرسول، وهذا له معنى أنّ النجاة لها طريق واحدة وهي قبول الدعوة.

أمّا سورة التكوير فلا تخاطب أحدًا بعينه، ولذلك فهي تخاطب الجميع. وهي ذات آيات قصيرة بليغة تقع موقعًا مميّزًا في قلب متلقّيها، وهذا ربّما سبب تفنّن القرّاء في تلاوتها وتحبير الصوت فيها. وهي ذات خطّ نفسيّ داخليّ مستقلّ عن حوادث ذلك الزمان، ولا تتعامل مع نفسيّة الرسول، بل مع نفس السامع إذ يتلقّاها، وهي أولى السور التي يكون هذا نهجها حصرًا.

إضاءات لغويّة

- كوّرت: من "ك و ر" وفيه عدا عن المعنى المشهور الذي يدور حول اللفّ والجمع، إذ يقال كوّر العمامة أي لفّها، معنى الانحسار فهو ضدّ البسط والفرد.
- انكدرت: من "ك د ر" وفيه معنى التغيّر والانطفاء، ومنه الماء الكدر الذي ذهبت لمعته لما شابه من غبار وأتربة.
- العشار: النوق إذا حملت أو ولدت، ولها عناية خاصّة لأنّها من أثمن ما يملك العربيّ، فإذا ولدت تعهّدها راعيها بالحلب والرعاية، أمّا أن تعطّل فذلك يعني أن يتركها صاحبها، وهذا لا يكون إلّا لأمر جلل.
- سجّرت: من "س ج ر" وفيه معنى الامتلاء والفيضان حتى الاختلاط، وقيل بل اشتعلت.
- الموءودة: من "و أ د" وهو الدفن حياً، والمقصود البنات اللاتي كنّ يدفنّ أحياء، وهي لم تكن ممارسة شائعة كما يتصوّر بعض الناس، بل كانت مذمومة في الجاهلية، لكنّ سياقها هو ما يهمّنا، وهو انتفاء

النظام ووجود عادة السبي التي كانت تتسبّب في أن يقتل الرجل بناته خشية السبي.

- كشطت: من "ك ش ط" وهو النزع والإزالة بقوة، كما يكشط الجلد عن الذبيحة.
- لا أقسم: سواء أفهمتها بمعنى نفي القسم أو بإثباته بلاغة، فهي بمعنى تعظيم ما يأتي بعدها والتأكيد على ارتفاع شأنه، فهو ممّا يقسم به. ولم يزل العرب يستخدمون أسلوبًا مشابهًا في العامية.
- الخنّس: من "خ ن س" وهي أجرام مضيئة في السماء، تظهر ليلا وتختفي نهارًا، أو تضيء وتختفي في الليلة الواحدة.
- عسعس: الجذر "ع س س" مضاعف، ويدل على اشتداد الظلام شيئا فشيئا.
- تنفّس: يقال تنفّس الصبح أي بدأ في أولى ساعاته.
- ضنين: المتّصف بالضنّة، وهو ضرب من البخل يكون مع شحّ الشيء الذي تبخل به وندرته.
- شيطان رجيم: الشيطان صيغة فيعال من الجذر "شطن" أي شطّ وابتعد، وشيطان الشعر شطح خيال الشاعر، والرجيم المذموم، ومن المعلوم أنّ الإنسان

إذا شطن في سلوكه أو اشتطّ وابتعد عن السلوك القويم عاد وندم وذمّ مثل هذا.

مقالة السورة

عندما تلتف الشمس على نفسها وتنطفئ النجوم وتتحرك الجبال من مواضعها، وتترك النوق الحوامل بلا راعٍ لها مع أنها أغلى ما يملك العرب، وتجتمع الوحوش في مكان واحد خلافاً لطبعها، وتفيض البحار حتى تختلط مياهها، وتقترن كل نفس بما يشابهها (وهذا يكون معناه إمّا أن تجتمع الأرواح بأجسادها وإمّا أن يجمع الناس حسب صفاتهم)، وتُسأل البنت التي قتلت بدفنها حيّة: ما الذنب الذي استحقت عليه القتل؟ (وهذا تذكير بانتفاء النظام وأثره السلبيّ عليكم إذ تقتلون أنفسًا بريئة يكون المجتمع كلّه مذنبًا في قتلها)، وعندما تُنشر صحائف الأعمال، وتُنزع السماء كما يُنزع الجلد، ويزداد اتّقاد الجحيم، وتُقرّب الجنة، عند هذا كلّه تعلم كل نفس ما قدّمته وأخّرته من أعمال، أي كيف كانت تدار أولويّاتها.

أقسم بالنجوم التي تختفي نهاراً وتظهر ليلا، وتبتعد عن أماكنها وتعود إليها، وأقسم بالليل إذا بدأ يتمكّن من الأرض، وبالصبح في بدايته: إنّ هذا القرآن كلام رسول شريف أرسلناه إلى رجل منكم، وهذا الرسول قويّ المكانة

عند الله، مطاع في الملأ الأعلى، أمين على الوحي الذي هو من الله، وما محمد الذي تعرفونه حقّ المعرفة بمجنون كما يزعم بعضكم، وقد رأى ملاك الوحي دون لبس، وهو لا يبخل عليكم بما علّمه الله من الغيب الذي نعلمه حقّ العلم، وما هذا القرآن بما ينتج عن شطحة ذهن، فتلك الشطحات عادةً تعقبها الندامة، ويكرهها الناس.

فإلى أين تذهبون بآرائكم؟ ما هذا القرآن إلا تذكير للناس جميعًا، لمن أراد منكم أن يستقيم على الحق. وإرادتكم هذه بأن تهتدوا معلّقة بإرادة الله، فإن طلبتم الهداية فالله من هداكم إلى طلبكم هذا، ونتيجتها معلّقة بإرادة الله أيضًا، فالخير كلّه من الله.

القراءة الشمولية

تقدم السورة مشهداً متكاملاً لنهاية الكون وبداية الحساب في صور متتابعة بليغة مسجوعة، تبدأ بانقلاب النظام الكوني (الشمس والنجوم والجبال)، ثم انقلاب النظام الحياتي (النوق والوحوش والبحار)، وصولاً إلى انقلاب النظام الاجتماعي (اقتران النفوس وسؤال الموءودة).

ثم تنتقل إلى تأكيد مصدر الوحي وصدق الرسول من خلال القسم بظواهر كونية تمثل دورة الزمن (النجوم

والليل والصـــبح). وتختم بتقرير أن الهداية متاحة لكل من يريدها، لكن هذه الإرادة نفسها مرتبطة بمشيئة الله.

في هذا البناء المحكم، خطاب يأخذ بنفس المتلقّي فلا يدع له أن يبتعد بذهنه عمّا يسمع، فإذا مرّ في نفسه سؤال وجد إجابته في آية أخرى، ليصـــل به إلى أنّه يفترض العجائب من أنّ جنًّا مسّ النبيّ أو أنّ القرآن شطحة ذهن بشريّ أو سـوى ذلك، وينســى أنّ تفسـير حادثة الوحي بأنّها أمر الله لهو أقرب وأسـهل ممّا يزعم من يحاولون التشـويش على الدعوة.

مقالات القرآن العظيم 9 | سورة الأعلى

منذ سورة التكوير نرى القرآن المكّيّ يرتفع شيئا فشيئا فوق الأحداث وأحوال ذلك الزمان ليتحدّث بالحقائق الكونيّة، ويعطي النبيّ ومن يتّبعه سرديّة عن الكون والحياة الدنيا والآخرة.

سورة الأعلى وهي الثامنة في ترتيب النزول حسب بعض من تصدّوا لترتيب القرآن، وهي لها أسلوبها الموجز وإيقاعها المتناغم، وتذكر أمرًا مهمًّا يتعلّق بالنبيّ، فقد كان النبيّ إذا نزلت سورة يكثر من تلاوتها حتّى يطمئنّ إلى أنّه لن ينساها، فتأتي هذه السورة لتقول للنبيّ إنّ الله قضى أنّه لن ينسى إلّا ما ينسيه الله، وتقرن ذلك بعلم الله الكلّيّ الذي يشمل الجهر والسرّ، وقد قدّم الجهر على السرّ (ما يخفى) لأنّه أسهل أن يعلم من السرّ، وقد استخدمت كلمة ما يخفى لتدلّ على السرّ (ما يسرّه الإنسان لكن يعلمه)، وما يخفى على الإنسان أصلا (فهو لا يدركه من الأساس).

إضاءات لغويّة

سبّح: من الجذر "س ب ح" الذي يدل على الحركة المستمرة والدوران، فالكواكب تسبح في أفلاكها، والطير يسبح في الجو، والسمك يسبح في الماء. والتسبيح هنا تسبيح الاسم، أي أنّه عليه أن ينزّه اسم الله عن كل نقص،

والعلاقة بين مفهوم التسبيح الكامن في الحركة الدائمة الدائبة ومفهوم التنزيه تأتي من الاعتراف بتنزهه عن الجمود وعن منع الخير وتفويضه بما هو من شأنه والتوكّل عليه فيه. وكما أسلفنا سابقا أنّه مع الزمن اكتسب فعل التسبيح معنى ترديد كلمة "سبحان الله" التي تعني تنزيه الله عن كل نقيصة.

الأعلى: من الجذر "ع ل و" الذي يدل على الارتفاع والسمو، وصيغة التفضيل "الأعلى" تدل على أنه أعلى من كل عالٍ. والعلو هنا يشمل علو الذات والمكانة والقدر والقهر.

خلق: من الجذر "خ ل ق" الذي يدل على تبديل الشيء من حال إلى حال. وعندما يكون فعلا مطلقا فيعني الإيجاد من العدم والإبداع، لكنّه هنا معطوف على فعل آخر وهو التسوية.

فسوّى: من الجذر "س و ي" الذي يدل على الاستواء والاعتدال، والتسوية هي إتمام الخلق وإتقانه بحيث يكون متناسبا متكاملا.

قدّر: من الجذر "ق د ر" الذي يدل على المقدار والميزان، والتقدير هو وضع الشيء في حجمه ومقداره المناسب

بميزان دقيق. والتقدير يشمل تحديد وظيفة كل مخلوق وخصائصه.

فهدى: من الجذر "هـ د ي" الذي يدل على الدلالة الممنوحة برفق ولطف. والهداية هنا تعني توجيه المخلوقات إلى وظائفها وطرق عيشها وبقائها.

المرعى: من الجذر "ر ع ي" الذي يدل على الحفظ والرعاية، والمرعى هو الأرض التي فيها النبات الذي ترعاه الدواب. وفي السياق يشير إلى ما يخرجه الله من الأرض من نبات.

غثاء: من الجذر "غ ث و" الذي يدل على ما لا قيمة له، والغثاء ما يحمله السيل من ورق وزبد. وفي السياق يشير إلى ما يصير إليه النبات بعد جفافه.

أحوى: من الجذر "ح و ي" الذي يدل على الجمع والضم، والأحوى اللون المائل إلى السواد، وهو وصف للنبات إذا يبس واسودّ بعد اخضراره. أي أنّ الله بعد أن يخرج النبات يذهب به.

سنقرئك: من الجذر "ق ر أ" الذي يدل على الجمع والضم، والقراءة جمع الحروف والكلمات بالنطق. والإقراء هنا إيصال الوحي إلى النبي وتثبيته في ذهنه.

الجهر: من الجذر "ج هـــــــ ر" الذي يدل على الظهور والوضوح، والجهر ما يُعلَن ويُظهَر.

اليســـرى: من الجذر "ي س ر" الذي يدل على الســـهولة والمرونة، واليسرى طريق اليسر والسهولة والخير.

يخشـــى: من الجذر "خ ش ي" الذي يدل على الخوف المقترن بالتعظيم والمعرفة، والخشية أعلى درجات الخوف وتكون من علم القلب بعظمة من يخشاه.

الأشقى: من الجذر "ش ق و" ومنه الشقاء بمعنى المشقّة، وأشقى اسم تفضيل بمعنى أكثر الناس شقاء، وأبعدهم عن الخير والسهولة.

يصـــلى: من الجذر "ص ل ي" الذي يدل على ملازمة النار، ومنه الصلاء وهو الاحتراق بالنار.

أفلح: من الجذر "ف ل ح" الذي يدل على الشـــق والقطع، ومنه الفلاح بمعنى النجاح والفوز، كأن الإنســـان شـــق طريقه نحو الفوز.

تزكّى: من الجذر "ز ك و" الذي يدل على النماء والطهارة، والتزكي هو تطهير النفس من الشـــوائب وتنميتها بالخير، وأن تزكو النفس أي أن يظهر خيرها الداخليّ فينتشـــر إلى خارجها.

تؤثرون: من الجذر "أ ث ر" الذي يدل على تقديم الشـــيء واختياره، والإيثار هو تفضيل الشـيء وتقديمه على غيره، أي تختارون الشيء على ما سواه.

الصـــحف: من الجذر "ص ح ف" الذي يدل على البســـط والسـعة، والصـحف جمع صـحيفة وهي ما يكتب فيه من ورق أو جلد.

مقالة السورة

نزِّه اسم ربك عن كل نقص ودنس، واذكره ممجدًا له، فهو الأعلى في ذاته وصـــفاته وأفعاله. هو الذي أوجد جميع المخلوقات فأتقنها وأحسن نظام عيشها، وهو الذي قدّر لكل مخلوق خصـــائصـــه وطبيعته وأجله، ثم وجهه إلى طريق بقائه وحياته، وهو الذي أخرج من الأرض الكلأ والنبات الأخضـــر، ثم حوّله بعد مدة إلى هشـــيم جاف مائل إلى السواد.

إننا سـنلقي إليك - أيها النبي - القرآن فتحفظه (فلا تنســى هنا ليست نهيًا بل إعلامًا بأنّه لن ينسى)، إلا ما شاء الله أن تنســاه لحكمة يريدها، فهو يعلم ما تجهر به وما تســرّه وتخفيه (العلاقة بين أن يملك الله أمر الحفظ والنسيان وبين أنّه يعلم الجهر والسرّ علاقة تستحقّ التأمّل، وربط القرآن هذه بتلك لم يأت دون علاقة أصـــيلة بينهما، وربّما كان

الأمر أنّ العلم التامّ يعني أنّ الله يدرك المصـــلحة المتغيّرة التي تقتضي النسيان أحيانًا، أو كما قيل نسخ بعض الأحكام حسب مقتضى الحال) وسنيسّر لك أمر الدعوة والعمل بما فيه رضوان الله، ونهديك إلى ما فيه اليسر والسهولة.

فذكّر الناس بما أوحينا إليك، إنّ هذه هي مهمّتك، لعلّ التذكير نافع لهم. ســيتذكر ويتّعظ من يخشـــى الله ويخاف عقابه، ويتجنب التذكرة أشـــقى الناس حظًّا، وهو الذي سيصلى النار العظمى، ثم سيكون فيها بين الحياة والموت، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة طيبة.

قد نـال الفلاح والفوز من طهّر نفســـه من الشـــرك والمعاصــــي، وذكر اســـم ربه فكانت نتيجة ذلك أن أدّى الصلاة وأقام صلته بالله والناس. لكنكم أيها الناس تفضّلون الحياة الدنيا العاجلة على الآخرة، مع أن الآخرة خير لكم من الدنيا وأبقى.

إن هذه المعاني والحقائق التي تضمنّتها هذه السورة قديمة في رسالات الله، فهي مذكورة في الصحف التي نزلت إلى من سبقك من الأنبياء، وفي صحف إبراهيم وموسى التي تعرفون بوجودها.

القراءة الشموليّة

تقدم سورة الأعلى منظومة متكاملة من المفاهيم والتوجيهات التي تؤسس لعلاقة صحيحة بين الإنسان وخالقه، وتربط بين الرسالة المحمدية والرسالات السابقة، وتضع الإنسان أمام اختياره المصيريّ.

تبدأ السورة بتسبيح الله وتنزيهه، وهو تأسيس للتصور الصحيح عن الله في نفس المؤمن. ثم تنتقل لتقديم أربع صفات إلهية تتجلى في الكون: الخلق والتسوية، والتقدير والهداية، وإخراج المرعى، الذي نرى أنّ الله ي. هذه الصفات تمثل دورة الحياة كاملة: من الإيجاد والإتقان، إلى التقدير والتوجيه، إلى الإنبات والإحياء، وصولاً إلى التحول والنهاية. وفي هذا تذكير للإنسان بدورة حياته هو أيضًا، وأن الله خالقه ومدبر أمره من البداية إلى النهاية.

ثم تنتقل السورة إلى العلاقة الخاصة بين الله ونبيه، فتبشره بحفظ القرآن في قلبه، وتيسير طريق الدعوة له. وهذه بشارة تثبت قلب النبي في مواجهة التكذيب والعناد.

وبعد هذا التثبيت تأتي الوظيفة الأساسية للنبي وهي التذكير، مع الإشارة إلى أن استجابة الناس للتذكير ستختلف: فمنهم من يتذكر ويخشى، ومنهم من يتجنب

ويعرض. وهذا الاختلاف مرتبط بالطبيعة الإنسانية نفسها، وبمدى استعداد الإنسان لتلقي الحق.

تعرض السورة بعد ذلك نموذجين متقابلين: نموذج الشقاء المتمثل في من يدخل النار ويعيش فيها بين الموت والحياة، ونموذج الفلاح المتمثل في من يزكي نفسه ويذكر ربه ويصلي. وهذان النموذجان يمثلان خياري الإنسان في الحياة، وما يترتب عليهما من جزاء.

ثم تكشف السورة عن سبب اختيار كثير من الناس للشقاء: إنه إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، مع أن الآخرة خير وأبقى. وفي هذا تقرير لحقيقة أن الاختيار الخاطئ ناتج عن قصر النظر وتفضيل العاجل على الآجل.

تختتم السورة ببيان أن هذه الحقائق والتوجيهات ليست جديدة، بل هي مذكورة في الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى. وفي هذا تأكيد على وحدة الرسالات السماوية وثبات أصولها على مر الزمن، وأن ما جاء به الإسلام ليس بدعًا من القول، بل هو امتداد وتكميل لما سبقه من رسالات.

هكذا تقدم السورة رؤية متكاملة تربط بين خلق الله وتدبيره للكون، ورسالة النبي وتذكيره للناس، واختيار الإنسان لمصيره بين الشقاء والفلاح، ووحدة الرسالات السماوية

في أصـولها ومقاصـدها. وكل ذلك في أسـلوب موجز بليغ يهز القلوب ويحرك العقول.

مقالات القرآن العظيم 10 | سورة الليل

ســـورة أخرى تســـتقلّ بخطابها عن حوادث زمن النزول، فتتحدّث بالكونيّات والطبائع الإنســـانيّة، والحســـاب الإلهيّ على أعمال الدنيا، في إيقاع رشـــيق، ونهايات صـــوتية متشـابهة. وهنا نبدأ بتلمس فكرة النظم بطريقة أوضـح من سواها.

وهنا ربّما كان مناســـبًا أن نقف عند فكرة النظم أو نظرية النظم التي وضعها عبد القاهر الجرجاني (ت 471هــــ)، وهي من أهم النظريـات في فهم الإعجـاز البلاغي للقرآن الكريم. فالجرجاني يرى أن جمال النص وإعجازه لا يكمن في الألفاظ منفردة ولا المعاني مجردة، بل في "النظم" - أي العلاقـات والروابط بين الكلمـات وترتيبهـا وفق مقتضيات النحو والمعنى. وسورة الليل تجسد هذه النظرية بوضـــوح، حيث نلاحظ التناســـق الدقيق بين الثنائيات المتقابلة (الليل والنهار، الذكر والأنثى)، والبنية المتوازية للآيات، والتقســيم المنطقي للفريقين وعاقبتهما، وانســجام الإيقاع الصـــوتي مع المضـــمون، مما يجعل النص وحدة

متكاملة لا يمكن فصـل عناصـرها أو تبديل مواقعها دون الإخلال بالمعنى والجمال.

إضاءات لغويّة

يغشى: أي يغطّي ويحجب.

تجلّى: من "جلو" وفيه معنى الوضـوح، وتجلّى أي ظهر وبدا واتّضح.

وما خلق الزوجين الذكر والأنثى: هذه الآية تستحقّ وقفة، فمن القراءات ما يحذف "ما"، ومنها ما يجرّ كلمة "الذكر" ملحقا إيّاها بالليل والنهار، ومعنى الآية مختلف عليه أيضًا، فمنهم من قال إنّ الله يقسم بنفسه، ولكنّه يقول "وما خلق" ليس "ومن خلق"، وهذا دفع بآخرين ألّا يقبلوا هذا الفهم. أمّا ما نراه أنّ الله إذ يذكر شيئا فإنّه يذكّر به أيضًا، وهذا يستدعي أداة مشابهة لواو القسم عند العرب وهي واو ربّ. وهنا يكون لنا أن نتلمّس المعنى الكلّي للآيات بطريقة مختلفة كما سيأتي في المقالة.

سعيكم: أي ما تطلبونه وما تسلكون من مسالك في طريقكم إلى ما طلبتم، وهي هنا بمعنى مجمل أعمالكم.

شتّى: أي مختلف متباين.

لا يصلاها إلّا الأشقى: هنا حصر بأنّ من يدخل النار هو الشقيّ فقط، والأشقى هنا هو المبالغ في الشقاء، وهذه قد ترى خبرًا بأنّ صفة من يدخل النار هي الشقاء، أو عاقبة من يكون شقيًّا ستكون دخول النار.

مقالة السورة

يقسم الله تعالى بالليل حين يغطي الأرض بظلامه، وبالنهار عندما يظهر بنوره ساطعاً، وهذه الثنائية الأولى التي يفتتح بها، وباطّراد الخلق في زوجين: الذكر والأنثى، وهذه أقسام تعبر عن ثنائيات متقابلة تحكم نظام الوجود: الظلام والنور، الذكورة والأنوثة، ويأتي جواب القسم: إن مساعي البشر وغاياتهم متنوّعة مختلفة، فمنهم من يسعى للخير ومنهم من يسعى للشر.

ثم تفصّل السورة هذا الاختلاف، فتقسم الناس إلى فريقين متقابلين: الفريق الأول هو من أعطى من ماله وطاقته ابتغاء وجه الله، واتّقى غضب الله بذلك، وصدّق بأسلوب الدعوة الحسن. هذا الفريق سييسر الله له طريق الخير، وسيوفّقه في أعماله حتى تصير حياته كلها يسراً، وآخرته نعيماً.

أما الفريق الآخر فهو من بخل بماله، وظن أنه مستغنٍ عن الله، وكذّب بما في هذه الدعوة الحسنة، هذا الفريق سييسر

الله له طريق الشـر وعسـر الحياة وصـعوبتها، حتى يلقى عـاقبـة أمره التي لن تكون إلّا عـذابًـا. وعنـدمـا يلقى هـذه العاقبة الوخيمة، لن يغنيه ماله الذي جمعه وبخل به شـيئاً، ولن ينفعـه إذ يتردّى في عملـه ثم يتردّى في الجحيم أي يلقى فيها.

إن على الله بيان طريق الهداية وإيضـاحه للناس، وقد فعل ذلك من خلال إرسـال الرسـل وإنزال الكتب. كما أن له سـبحانه ملكية الدنيا والآخرة، فهو المتصـرف فيهما، ولا يخرج شيء عن إرادته وتدبيره.

لذلك، فإني - يقول الله تعالى - أنذركم وأحذركم من نـار مسـتعرة متأجّجة، لا يدخلها إلّا الأشـقى الذي جمع بين التكذيب بالحق والإعراض عنه، وسـوء الخلق من بخل وتكبّر. أما الأتقى الذي حرص على طهارة ماله ونفسـه، والذي ينفق ماله ابتغاء رضـا الله لا لمكافأة ينتظرها من أحد، فسيبعده الله عن هذه النار.

فما يدفع هذا الأتقى به من خير، في الإنفاق وتزكية نفسـه ليس لتوقّع المكافأة من الناس، ولا رد جميل لأحد سبق أن أحسـن إليه، بل هو ابتغاء وجه ربه الأعلى وطلب رضـاه. ومن كان هذا حاله، فسـوف يرضـيه الله بما يعطيه من

جزاء حسن في الآخرة، وسوف يرضى هو بما يناله من نعيم، فالله يعده بالرضا، أو يخبره أنّه سيرضى.

المعنى الشمولي

تقدم سورة الليل منظومة متكاملة للوجود الإنساني والقانون الإلهي الذي يحكمه، من خلال ثنائيات متقابلة تشكل نسيجاً متناغماً يوضح الطبيعة الثنائية للكون والحياة البشرية.

تبدأ السورة بثلاث ثنائيات كونية: الليل والنهار (تعاقب الزمن)، والذكر والأنثى (تكامل الوجود)، لتنتقل بعدها إلى ثنائية المسعى البشري (أعمال متباينة واتجاهات متعارضة). وهذا التقابل بين الثنائيات الكونية والإنسانية يؤسس للقانون الشمولي الذي يحكم الوجود - قانون الازدواجية والتكامل والتوازن.

تكشف السورة عن مسارين متوازيين لا يلتقيان في الحياة الإنسانية: مسار العطاء والتقوى والتصديق، ومسار البخل والاستغناء والتكذيب. ويؤسس لعلاقة سببية دقيقة بين الاختيار والمصير، حيث يؤدي كل مسار إلى نتيجة محتومة: اليسر أو العسر. وبذلك تؤكد السورة على مبدأ أن الإنسان يصنع مصيره باختياراته، وأن هذه الاختيارات

ليست عشوائية، بل تنبع من موقف داخلي أصيل تجاه الحياة والقيم.

ولا تكتفي السورة ببيان المسارين ونتائجهما، بل تكشف عن التناقض الصارخ بين المسارين في لحظة الحقيقة النهائية - لحظة التردي والسقوط. حيث يُظهر النص أن المال الذي بخل به صاحبه لن يغني عنه شيئاً في تلك اللحظة الحاسمة، مما يؤكد على زيف القيم المادية التي بنى عليها حياته.

تختتم السورة بلمسة إنسانية عميقة، تكشف عن أعلى درجات النقاء النفسي والخلقي، حيث يبذل الإنسان الأتقى عطاءه لا لرد جميل ولا لانتظار مكافأة، بل ابتغاء وجه ربه الأعلى فقط. وهذا يمثل قمة التحرر من أسر المادة والمصلحة، ليصل الإنسان إلى مرحلة العطاء الخالص الذي تمثله جملة "ولسوف يرضى" - تلك الغاية القصوى التي يسعى إليها المؤمن: رضا الله ورضا النفس.

هكذا تقدم السورة رؤية شمولية متكاملة تربط بين قوانين الكون وقوانين النفس البشرية وقوانين الجزاء الإلهي في نسيج متناغم، يجعل الإنسان مدركاً لمكانه في هذا الوجود وواعياً بمسؤوليته عن مصيره، ومطمئناً إلى عدالة الجزاء، دون أن يفعل ما يفعل لأنه يطلب الجائزة.

مقالات القرآن العظيم 11 | سورة الفجر

سـورة الفجر هي العاشـرة في ترتيب النزول وفق بعض الروايات، وتتميز بإيقاعها المؤثر وصـورها القوية التي تربط بين مشـاهد الطبيعة والتاريخ والنفس البشـرية. تبدأ بسلسلة من القسم بالمظاهر الكونية، ثم تنتقل إلى عرض نماذج تاريخية للطغيان والعقاب، لتخلص إلى تشـخيص حال الإنسـان الماديّ وقصـور رؤيته في تفسـير الابتلاء، فمشـهد عذاب من كذّب، إلى أن تنتهي بمشـهد النفس المطمئنة وهي تعود إلى ربها.

إضاءات لغويّة

الفجر: من الجذر "ف ج ر" الذي يدل على الانشـقاق والانفتاح ومنه الانفجار. والفجر هو انشقاق ضوء الصباح عن ظلمة الليل. وفي اللغة العربية، يرتبط هذا الجذر بمعاني الظهور بعد الخفاء، والانبثاق والتدفق، كما في تفجر الماء من الينابيع.

ليال عشـر: وردت بالتنكير وكأنّها معروفة عند الناس، ما حدا بالمفسّـرين أن يقولوا إنّ المقصـود بها على الأرجح العشـر الأوائل من ذي الحجة، وقيل العشـر الأواخر من رمضـان، وقيل الليالي التي أتمّها الله لموسـى، ولكلّ من

الأقوال وجه قائم على المأثور عن العرب من تعظيم هذه الأيام.

الشفع والوتر: الشفع من الجذر "ش ف ع" وفيه معنى الضم والإلحاق، والمقصود به الزوج والمزدوج من الأشياء. والوتر من الجذر "و ت ر" وفيه معنى الانفراد، وهو ما ينفرد ولا نظير له. وهنا نرى ثنائية أخرى تعبر عن قانون الازدواجية في الوجود من مثل ما نراه في سور أخرى (الليل والنهار، الذكر والأنثى، الخير والشر)، والفردانية المنفردة بشكل مطلق (وحدانية الله).

والليل إذا يسر: والمقصود هنا يسري من الجذر "س ر ي" وفيه معنى الحركة والسريان ليلاً. والمقصود به سريان الليل وانتهاؤه. وقد جاءت هنا بصيغة المضارع "يسر" للدلالة على الاستمرارية والتجدّد.

ذي حجر: الحجر من الجذر "ح ج ر" وفيه معنى المنع والإحاطة، والمقصود به العقل الذي يمنع صاحبه من الوقوع في المهالك، واسم العقل من العقال أي الربط أيضًا. وسمي العقل حجراً لأنه يحجر على صاحبه، أي يمنعه من التصرفات الطائشة. والقرآن هنا يوجه السؤال لأصحاب العقول والبصائر.

إرم ذات العماد: أثار المفسرون جدلاً حول "إرم" فقيل إنها اسم قبيلة من عاد، وقيل اسم مدينة عظيمة بناها شداد بن عاد. والعماد من الجذر "ع م د" الذي يدل على القصد والاستقامة والارتفاع، والمقصود به الأعمدة الطويلة المرتفعة التي كانت تقام في البناء دلالة على القوة والفخامة.

جابوا الصخر: من الجذر "ج و ب" وفيه معنى القطع والاختراق، والمقصود به نحت الصخور وتقطيعها. وهي إشارة إلى مهارة ثمود في نحت البيوت من الجبال، كما قال تعالى: "وتنحتون من الجبال بيوتاً".

ذي الأوتاد: الأوتاد جمع وتد، وهو ما يُغرز في الأرض لتثبيت الخيمة. وقيل المقصود بها كثرة جنوده وثبات ملكه، وقيل إنها إشارة إلى طريقة تعذيبه للناس بتثبيتهم بالأوتاد.

طغوا: من الجذر "ط غ و" وفيه معنى مجاوزة الحد، والطغيان هو الإفراط في العدوان والظلم والتكبر.

بالمرصاد: من الجذر "ر ص د" وفيه معنى الرقابة والترقب والانتظار. والمرصاد هو مكان الرصد والترقب. والمعنى أن الله يراقب أعمال العباد ويجازيهم عليها.

ابتلاه: من الجذر "ب ل و" وفيه معنى الاختبار والامتحان، والمقصود به اختبار الله للإنسان في السراء والضراء.

أهانن: من الجذر "هـ و ن" وفيه معنى الاستخفاف والتحقير، أي أهانني، والإهانة هي الإذلال والاستخفاف.

كلا: حرف ردع وزجر، وهو هنا للرد على الفهم الخاطئ للإكرام والإهانة.

تحاضّون: من الجذر "ح ض ض" وفيه معنى الحث والتحريض والتشجيع. والتحاض هو الحث المتبادل، أي أن يحث بعضكم بعضاً على ذلك الفعل.

التراث: من الجذر "و ر ث" وفيه معنى ما يتركه الميت لمن بعده. والمقصود به هنا الميراث.

أكلاً لماً: اللم من الجذر "ل م م" وفيه معنى الجمع والضم. والمقصود بالأكل اللم الأكل الشديد الجامع الذي لا يترك شيئاً، فهو كناية عن الشره والنهم.

جماً: من الجذر "ج م م" وفيه معنى الكثرة والتراكم، والجم هو الكثير المتراكم.

دكت: من الجذر "د ك ك" وفيه معنى الهدم والتسوية بالأرض. ودك الأرض هو جعلها مستوية بعد أن كانت مرتفعة بجبالها، والتكرار يعني أنّه دكّ متعاقب.

المطمئنـــة: من الجـذر "ط م ن" وفيـه معنى الســـكون والاستقرار بعد الاضطراب. والاطمئنان هو سكون النفس وثباتها وعدم قلقها.

راضية مرضية: الرضا من الجذر "ر ض و" وفيه معنى القبول والارتياح. والراضية هي التي رضيت بما قسم الله لها. والمرضية هي المقبولة.

مقالة السورة

تبدأ الســـورة بســـلســـلة من الأيمان بالمظاهر الكونية والزمانية: بالفجر وهو بداية النهار واســـتهلال الضـــوء، وبالليالي العشـــر التي اختلف المفســـرون في تحديدها بين أوائل ذي الحجة أو أواخر رمضان، لكنها في كل الأحوال أوقات ذات قدسية وأهمية روحية. ثم القسم بالشفع والوتر، وهي ثنـــائيـــة تعبر عن قـــانون ثنـــائيّ بين الازدواجيـــة والفردانية في الوجود كله. وأخيراً القسم بالليل حين ينتهي ويسري، في إشارة إلى سنة التحول والانتقال.

هذه الأقســـام المتوالية بظواهر وأوقات تجتمع فيها معاني التحول والانتقال والثنائية، تنتهي بسـؤال اسـتنكاري: "هل في ذلك قسم لذي حجر؟" والمقصـود أن هذه الأقسام كافية لمن لـه عقل راجح يتفكر في آيات الله المذكورة، وهـذا

السؤال يربط بين القسم وجوابه المتمثل في العبرة التاريخية التي ستعرضها الآيات التالية.

ثم تنتقل السورة من المشهد الكوني إلى المشهد التاريخي، عارضة ثلاثة نماذج للحضارات الطاغية التي بلغت قمة القوة المادية ثم هلكت بسبب طغيانها: عاد وثمود وفرعون. وتختار السورة من صفات كل حضارة ما يبرز جانب القوة المادية فيها: إرم ذات العماد (البناء الضخم)، وجابوا الصخر بالواد (المهارة التقنية)، وفرعون ذي الأوتاد (الملك المستقر). هذه القوى الثلاث جمعها وصف واحد: "الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد". فالطغيان والفساد سمتان متلازمتان تنتجان عن القوة المادية حين تنفصل عن القيم الروحية والأخلاقية.

كانت نتيجة هذا الطغيان أن صب الله عليهم "سوط عذاب"، وهي استعارة بليغة تصور العذاب كالسوط الذي ينزل بقوة وسرعة على المعذب. وتختم هذا المقطع بحقيقة كونية: "إن ربك لبالمرصاد"، أي أن الله يراقب أعمال العباد ويرصدها ويجازيهم عليها.

ثم تنتقل السورة من النماذج التاريخية إلى تشخيص الحالة النفسية للإنسان في تعامله مع الابتلاء: "فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن، وأما إذا

ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن". وهنا نرى خطأً في فهم الإنسان لطبيعة الابتلاء، إذ يرى النعمة إكراماً من الله له، ويرى تقتير الرزق إهانة، وهو فهم مادي سطحي يربط القيمة الإنسانية بالغنى والفقر.

لذلك يأتي الرد الحاسم: "كلا"، وهو حرف ردع وزجر للفهم الخاطئ. ثم تعدد السورة مظاهر هذا الفهم المادي الخاطئ: عدم إكرام اليتيم، وعدم الحض على طعام المسكين، وأكل التراث أكلاً شرهاً لا يترك شيئاً، وحب المال حباً مفرطاً. وهذه السلوكيات كلها تكشف عن رؤية مادية للحياة تجعل المال غاية في ذاته وليس وسيلة للعمل الصالح.

ثم تنتقل السورة إلى مشهد من مشاهد القيامة: "كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً، وجاء ربك والملك صفاً صفاً". وهنا تتجلى عظمة الله وقدرته في مشهد مهيب يخضع له الوجود كله. ويؤتى بجهنم في ذلك اليوم، فيتذكر الإنسان ما فرط فيه، ولكن بعدت منه الذكرى وقد فات أوان العمل! فيتمنى لو قدم لحياته الحقيقية الباقية.

وفي هذا اليوم يكون عذاب الله لهم عذابًا غير مشهود من قبل: "فيومئذٍ لا يعذِّب عذابه أحد، ولا يوثِق وثاقه أحد". وهذا تأكيد على أنّ عذاب الآخرة ليس كعذاب الدنيا.

تختتم السورة بمشهد مقابل للنفس الشقية، وهو مشهد النفس المطمئنة التي اطمأنت إلى الله وإلى وعده ووعيده، فقبلت ابتلاءه في السراء والضراء، وعلمت أن الكرامة ليست في المال، وإنما في العمل الصالح. هذه النفس تُدعى يوم القيامة: "يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية"، أي راضية بما قسم الله لها، مرضية عنده بعملها الصالح. فيدعوها إلى الدخول "في عبادي"، أي في زمرة عباده الصالحين، و"ادخلي جنتي"، وهذا هو الفوز العظيم.

مع ملاحظة أن بعض العلماء يرون أن الآيات الأربع الأخيرة نزلت متأخرة، إذ يذكرون لها مناسبة نزول متأخّرة، ويعني هذا ضمنًا أنّها ضُمّت إلى السورة لاحقاً. ولكن سواء كانت هذه الآيات من أصل السورة أو ألحقت بها لاحقاً، فإنها تشكل ختاماً منطقياً ومتناسقاً مع موضوع السورة، إذ تقدم النموذج المقابل للنفس الشقية التي وصفتها الآيات السابقة.

القراءة الشمولية

تتجلى بلاغة سورة الفجر في نظمها المحكم الذي يربط بين عناصرها المتنوعة في نسيج متماسك. تبدأ السورة بأقسام كونية تحمل معاني التحول والانتقال، ثم تنتقل

بسلاسة إلى نماذج تاريخية للطغيان، لتصل إلى تشخيص دقيق للنفس البشرية في تعاملها مع الابتلاء، وتختتم بمشهد النفس المطمئنة العائدة إلى ربها.

يتناغم البناء اللفظي للسورة مع بنائها المعنوي، حيث تتصاعد حدة الخطاب من القسم بفكرة الفجر، إلى ذكر عقاب الأمم الطاغية، إلى مشهد القيامة المهيب، ثم تهدأ فجأة عند خطاب النفس المطمئنة. هذا التناغم يعكس مسار النفس البشرية من الاضطراب إلى السكينة.

تقوم السورة على ثنائيات متقابلة: الشفع والوتر، الإكرام والإهانة، الطغيان والخضوع، الشقاء والطمأنينة. هذه الثنائيات ليست مجرد تقابلات لفظية، بل تعكس طبيعة الوجود الإنساني القائم على الاختيار بين مسارين متضادّين.

يبرز في السورة استخدام كلمة "ربك" التي تتكرر بنظام دقيق يربط مشاهد السورة المختلفة، وتؤكد أن المرجع النهائي للكون والتاريخ والنفس هو الله، ولكنّه هنا يأتي باسمه ربًّا أي راعيًا، ومضافًا إلى النبيّ أو العبد: ربّك، وتكتمل الدائرة البلاغية للسورة حين تبدأ بالفجر الذي يمثل انبثاق النور، وتنتهي بالنفس المطمئنة المنطلقة إلى آفاق النور الإلهي.

هكذا تقدم السـورة رؤية شـمولية متكاملة عن سـنن الله في الكون والتاريخ والنفس، وتكشـف عن أن السـعادة الحقيقية لا تكمن في القوة المادية ولا في المال، بل في الاطمئنان إلى الله والرضا بقضائه، مهما كانت الظروف المحيطة.

مقالات القرآن العظيم 12 | سورة الضحى

في سورة الضحى وهي السورة الحادية عشرة نزولًا، ثمّة حديث رقيق مع الرسول، ومع أنها سورة تعود لترتبط بأحداث ذلك الزمان، ولكن المسلمين يرون فيها حتّى الآن ما يواسيهم في كلّ لحظات الصعوبة والألم والفقد، فهي نزلت لمواساة الرسول فواست أمّته.

إنّ في السورة ما قد يأنف العربيّ أن يكشفه عن نفسه، لا سيّما إن كان من عائلة قويّة كبني هاشم، وهي بهذا تحوي ما قد يراه الناس على أنّه آية جديدة من آيات النبوّة، فلو أنّ النبيّ يختلق رسالته لما قال مثله، ولا حدث معه ما كان سببًا في نزول السورة.

يقول من يوثّقون أسباب النزول: إنّ الوحي انقطع لأيّام لم ترد على الرسول آية جديدة خلالها، فقالت إحدى النساء: ما أرى شيطانك إلّا تركك! فأثّر ذلك في نفس الرسول، إذ أصاب شيئا في نفسه من غياب الوحي، فنزلت السورة لتطمئن قلبه.

وفي هذه السورة تبدأ سمة من سمات القرآن بالاتّضاح، وهي أنّ ترتيب الآيات لا يكون على النظام المعتاد في النثر أو الاختيار، فقد يسير القرآن على ترتيب في الأسئلة، ثمّ لا يسير على الترتيب نفسه في إجاباتها، وقد تبدأ

قصـــص بترتيب ما ثم تنتهي بترتيب مختلف، وهذا ممّا يتقاطع القرآن فيه مع الشـــعر. وســـنرى ذلك في آخر الإضاءات اللغويّة.

إضاءات لغويّة

الضـــحى: من الجذر "ض ح و" الذي يدل على الظهور والانكشـاف. والضـحى هو وقت ارتفاع الشـمس وانتشـار ضوئها، وهو الوقت الذي تنكشف فيه الأشياء بوضوح بعد ظلمـة الليـل. وفي هـذا المعنى إيحـاء بوضـــوح الحق وانكشـافه. ومن معاني الضـحى أيضًـا بروز الشـمس في صفاء وتجلٍّ، وهو وقت للنشاط والعمل.

ســـجى: من الجذر "س ج و" الذي يدل على الســـكون والهدوء. والليل السـاجي هو السـاكن المظلم الذي خيم فيه الســـكون وامتد ظلامه. وتحمل الكلمة معاني الســـكينة والهدوء، وهي تتناقض مع حركة الضـــحى ونشـاطه، مما يبرز التقـابـل بين الحـالتين، وفيهمـا إحـالـة إلى حـالتي الحضور والغياب.

ما ودّعك ربّك: الوداع والتوديع معروفان، وإســـناده إلى كلمة ربّك تذكير بأنّ الله هو من يرعاك.

وما قلى: القِلى الكره الشـــديد مع الهجران، والهجران والقلى مختلفان عن التوديع، فالتوديع يحمل معنى الغياب،

لكنّ الهجران والقلى قد يكونان مع الحضـــور، فيمكن أن يكون القلى بين شخصين يتقاطعان في معيشتهما، لكنّهما لا يتفاعلان.

وللآخرة خير لك من الأولى: هذا ليس فقط تذكيرًا بأنّ الحياة الأخرى خير من الدنيا، لكنّ فيه أيضًـــا إطلاق على أنّ الآخرة خير من العاجلة حتّى في الدنيا ذاتها، فالمعنى هنا أنّ عاقبة أمرك خير ممّا تمرّ به اليوم.

المقابلة غير المرتّبة في آيات التذكير بالنعم والمسـؤوليّات التابعة لها:

يرتّب الله النعم التي منّ بها على الرســول، فيأتي بها على صورة أسئلة بليغة لا تحتاج جوابًا: ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضــالًّا فهدى، ووجدك عائلًا فأغنى؟ والترتيب هذا يبدأ من طفولة النبيّ، بأنّه كان يتيما فيسّـــر له الله من آواه ورعاه، ثمّ كان ضـــالًّا في شــبابه والضــلالة هنا الحيرة الظاهرة في سلوك صاحبها وهي أشدّ من الحيرة المجرّدة، فهداه إلى درب الاســتقامة في الحياة، وهذا كان قبل البعثة وقد رأينا ذلك في شرح كلمة ربّك في بداية سورة العلق، وأخيرًا يذكّره بأنّه أغناه من بعد عَوْل والعول الحاجة الماديّة. وكما تلاحظ هذا ترتيب زمنيّ.

ثمّ بعد ذلك يأتي ما يتبع تلك النعم من مسؤوليّات: فأمّا اليتيم فلا تقهر أي لا تستضعف يتيمًا، وبما أنّه ضعيف التكوين فعدم مساعدته قهر له، وهذا تابع لنعمة المأوى بعد اليتم، وأمّا السائل فلا تنهر، أي لا تزجر من يسألك حاجة أي يطلب منك العون على حوائجه، وهذا تابع لنعمة الغنى بعد العَوْل، وأمّا بنعمة ربّك فحدّث أي علّم الناس ممّا علّمك الله، فلا تكون هذه تابعة إلّا لنعمة الهدى بعد الضلالة. وهذا ترتيب أولويّات مستقلّ عن الترتيب الزمنيّ السابق.

مقالة السورة

أقسم بالضحى الذي فيه جلاء الحقّ، وبالليل حين يخيّم سكونه، وكلاهما وقت جليل في وضوح هذا وغموض ذلك، إنّني يا عبدي الصالح لم أتركك، وبما أنّك تعلم أنّني دائم الحضور بكوني إلهًا، فاعلم أنّني لم أبغضك أو أقاطعك مع حضوري.

واعلم أنّ ما ينتظرك في الغد خير مما مرّ بك في الأمس، وما أعددته لك في آخرتك خير مما ستناله في دنياك. بل سوف أعطيك حتّى ترضى، فحدّ عطائي هو رضاك عنه. ألم تكن يتيمًا ضعيفا، فآويتك ورعيتك ويسّرت لك من

يكفلك؟ ثمّ ألم أجدك تبحث عن الحقيقة وسط ظلمات الجاهليّة، فهديتك إلى معرفتي قبل الرسالة والوحي؟ ثمّ ألم أجدك محدود المال قليل الموارد، فأغنيتك بالقناعة ثم بالتجارة؟

فلا تظن أني قد تخليت عنك، أو أبغضتك وأبعدتك. إنما هي سنتي في الكون وفي النفوس، أختبر عبادي لأرفع درجاتهم، وأعرضهم للشدائد لأقوّي عزائمهم.

والآن، وقد رأيت كيف كنت معك في مراحل حياتك كلها، اشكرني بأن تجعل نعمي عليك سببًا في إسعاد الآخرين: فلا تترك اليتيم دون رعاية، فإنّ ضعفه يجعل تركه قهرًا له، بل أكرمه كما أكرمتك حين كنت يتيماً. ولا تنهر من يسألك حاجة، بل أحسن إليه كما أحسنت إليك حين كنت محتاجاً. وتحدّث بنعمتي عليك من الهداية، وعلّم الناس دينهم، وبلّغ عنّي الوحي.

هكذا تكون دورة الإحسان: تتلقاها من يدي، وتنشرها بين عبادي، فيعود خيرها عليك وعلى الناس أجمعين.

القراءة الشمولية

تقدم سورة الضحى نموذجاً فريداً للمواساة الإلهية في لحظات الشدة. يتجلى نظمها البديع في تقابل الضحى والليل الساجي كإشارة إلى تقلبات الحياة، وفي البناء

الثلاثي المتكامل: طمأنة في الحاضـر (ما ودعك ربك وما قلى)، وبشـارة للمستقبل (ولسوف يعطيك ربك فترضـى)، واستدعاء للماضي المشرق (النعم الثلاث).

تكشـف السـورة عن منهج رباني في التعامل مع الأزمات النفسية، يبدأ بتثبيت القلب، ثم الوعد بالمستقبل المشرق، ثم استحضـار الماضـي المضـيء، وأخيراً توجيه الطاقة نحو العمل الإيجابي. كما تقدم فلسـفة عميقة للشـكر، تتجاوز الكلمات إلى السـلوك العملي: الإحسـان إلى اليتيم، وإكرام السائل، والتحديث بالنعمة.

تظهر براعـة النظم في التوازي الـدقيق بين النعم الثلاث وطرق شـكرها، رغم اختلاف الترتيب، فـالنعم مرتبـة زمنياً، بينما يأتي الشـكر مرتباً حسـب الأولوية الأخلاقية. وفي هذا التقـاطع بين الترتيبين تتشـكل منظومـة قيميـة متكاملة تربط بين العطاء الإلهي والواجب الإنساني.

هكذا تظل السـورة رسـالة خالدة لكل مهموم: لم يتخل الله عنك، والمستقبل يحمل الخير، وماضيك شاهد على عنايته بك، وطريق تجاوز المحنة يكون بالإحسـان إلى الآخرين والتحدث بنعمة الله.

مقالات القرآن العظيم 13 | سورة الشرح

سورة الشرح، وهي السورة الثانية عشرة نزولًا حسب الترتيب الذي اعتمدناه، تبدو امتدادًا روحيًّا وعاطفيًّا لسورة الضحى، حيث تواصل مسار المواساة الإلهيّة للرسول، وتكشف عن عمق العلاقة بين الله والرسول في لحظات التحدّي والصعوبة.

وهي سورة قصيرة آياته رشيقة، وفيها أمران جديدان يمكن رؤيتهما امتدادًا لما أسلفنا ذكره في سورة الضحى من كونها آيات نبوّة إذ تكشف ممّا في نفس الرسول ما لا يكشفه العربيّ عادة لأنّه قد يرى ضعفًا.

إضاءات لغويّة

ألم نشرح لك صدرك: نشرح من الجذر "ش ر ح" الذي يدل على الانفتاح والتوسعة. والشرح هنا يحمل معاني الانشراح الداخليّ، وفتح القلب، وإزالة الضيق والحرج. إنّه أعمق من مجرد الفهم، بل هو حالة روحية من الاتساع والطمأنينة.

ووضعنا عنك وزرك: الوزر هو الحمل الثقيل، الذي يُثقل الظهر ويرهق النفس، وإضافته إلى ضمير المتكلّم يعني أنّه وزر له أو منه. ووضع الوزر هنا حسب سياق الآيات نزولًا هو تكفّل الله بكبار قريش، وإعفاء الرسول منهم.

الذي أنقض ظهرك: هذا تعبير بليغ يصـــور ثقل التكليف بصـــورة حســـية، فكأن الحمل قد أثقل الظهر حتى كاد ينكســـر. وفي هذا إشـــارة إلى المعاني الواردة في ســـورة المزّمل، إذ كما وضّحنا سابقًا كان تكذيب كبار مكّة قد أثّر في نفس الرسول حتّى تزمّل وكاد أن ينقطع للعبادة.

ورفعنا لك ذكرك: الكلام هنا بصـيغة الماضــي، أي أنّ الله يحدّث نبيّه عن ذكر ارتفع وانتهى وشهد الرسول ارتفاعه، فهو ليس كما ظنّ كثير من الشـيوخ بشــارة بارتفاع الذكر المقبل، وأظنّ رفع الذكر المقصـــود هو من شـــقّين: اتّباع بعض الناس رســـول الله، وذكر النبيّ فيما نزل من آيات سابقة ومنها "وإنّك لعلى خلق عظيم".

إنّ مع العسر يسرا: أي إنّ المشقّة تأتي لصيقة بالتيسير، سـواء معها أو عقبها. ولكنّ اسـم إنّ هنا هو اليسـر، وكأنّه يقول إنّ التيسير وليد المشقّة وصاحبها.

فإذا فرغت فانصـــب: فرغ من أمر أي أتمّه، وفرغ أي لم يكن لديه شغل، والنصـب التعب والجدّ، أي أنّك إذا أتممت أمرًا، فابدأ بالأمر الذي يليه، ولا تفتر لك همّة.

وإلى ربّك فارغب: أي اجعل قلبك منقطعا إلى الله وحده، وهذا يعني في ســـياق الآيات أن يكون هذا النصـــب الذي سبق ذكره تقرّبًا إلى الله.

مقالة السورة

أنا الذي أختبر عبدي، وأريد أن أوســـع له في قلبه قبل أن أوسع له في أمره. ألم تر كيف كنت معك؟ شرحت صدرك للحقّ حتّى أبلغتك الطمأنينة لما أنت عليه من الحق، ورميت عن كاهلك حملًا اخترته أنت بدعوة كبار قريش، فكدت أن تضعف في مواجهة التكذيب.

ها أنت ترى كيف تكفّلت بشرح صدرك وطمأنتك، وكيف أرحتك من عبء كبار قريش، وكيف رفعت ذكرك بين الناس بإيمان بعضهم، وبالقرآن الذي ذكرتك فيه وامتدحت فيه خلقك.

فلتتذكّر أنّ اليسر قادم رغم العسر. بل وإن العسر نفسه يحمل في طياته اليسر، ولتبشر بيسر أكبر في قابل الأيّام. فلا تيأس، ولا تحزن. كل صـــعوبة تأتي وتحمل فيها بذور تجاوزها.

فإذا فرغت من مهمّة، وهذه بشــارة لك بأنّك ستتمّ المهمّة، فاجتهد في ما يليها. لا تستكن، ولا تركن للراحة. وارغب إليّ دائمًا، فأنا مصدر عونك وقوتك ونصرتك.

هكذا أتعامل مع عبدي المصطفى. أوسع له، وأخفف عنه، وأرفع ذكره. وأعده بأن كل عسر سيأتي معه يسر، وكل ضيق سيتبعه فرج.

القراءة الشمولية

تكشف سورة الشرح عن منظومة إلهية متكاملة للتعامل مع التحديات النفسية والروحية، حيث تبرز عمق العلاقة بين الله والرسول في لحظات الاختبار والضغط.

تتجلى في السورة فلسفة التربية الإلهية القائمة على توسعة الصدر، وتخفيف الأعباء، ورفع الذكر. فالتوسعة الداخلية تسبق التكليف، والطمأنينة تسبق المواجهة.

المبدأ الأعمق يكمن في ثنائية "العسر واليسر"، حيث اليسر ليس نتيجة للعسر، بل كامن فيه. إنها فلسفة وجودية تؤكد أن الصعوبة تحمل في طياتها بذور حلها، وأن كل ضيق يحمل فرجه.

توجيه السورة الختامي يدعو للاستمرار في الجهد والتقرب إلى الله، مؤكدًا أن الراحة ليست في التوقف، بل في الاستمرار والعطاء.

رسالة السورة الخالدة هي الثبات في مواجهة التحديات، والثقة بأن وراء كل عسر يسرًا، وأن الله دائمًا مع المجاهدين في سبيل الحق.

مقالات القرآن العظيم 14 | سورة العصر وتعليق على النهج

ربّما يلاحظ من يقرأ هذه المقالات متتبّعًا ترتيبها حسب ترتيب النزول، أنّنا اختلفنا في مواضع كثيرة مع ما سمّاه الشرّاح في صدر عصر التدوين تفسيرهم، حتّى إنّنا ابتعدنا عن اسم "التفسير" أيّما ابتعاد، وهذا أمر يقتضي التوضيح في شقّيه: ما اختلفنا فيه معهم من معاني الآيات والسور، وابتعادنا عن اسم التفسير.

لهذا نلحق بتزمين سورة العصر وتقريبها لذهن الإنسان المعاصر في هذه المقالة توضيحا منهجيًّا ندين به للقارئ الكريم.

توضيح منهجيّ

إنّنا إذ نأينا بما نكتب عن اسم التفسير، فإنّ ذلك لأسباب كثيرة، أوّلها أنّ مفهوم التفسير غدا مفهومًا له قواعده التي لا تتفق ومنهجنا في هذه القراءة، وهذا ليس أمرًا في صميم الدين، لكنّه بات مدمجًا في علوم الدين إدماجًا، فنحن لا نخالف التعاليم الإسلاميّة إذ نبسط معنى الآيات دون أن ندّعي التفسير من جهة، ومن جهة أخرى نخرج من مضمار المفسّرين والقواعد التي اختطّوها، رغم أنّنا لا نتصادم معهم.

أمّا الكلمة في ذاتها "التفسير" فهي من الفصل، وهي مستخدمة قديمًا للطبيب النطاسيّ إذ ينظر في بول المريض

فيفسره، أي يعرف علّة المريض الغامضة من خلاله، وهذا ما أبعدني عن هذه الكلمة أوّل الأمر، إذ لم أرها مناسبة في حقّ القرآن بسبب ما التصق بها من استخدام شائع قديما.

فقد تقول: ولكنّها انزاحت وتغيّرت ولم تعد بمعنى الفصل أو فسر البول. وفي هذه أنت محقّ، لولا أنّ فيها اتّهامًا ضمنيًّا للقرآن بالغموض، ونحن إذ نحتاج الشرح والتوضيح فذلك لقلة علم أو تأمّل أو تدبّر لدينا، وليس بسبب غموض في القرآن، فالأحرى أن نقول إنّ ما نفعله هو تقريب القرآن من ذهن الإنسان المعاصر.

أمّا ما اختلفنا فيه مع كثير من أهل التفسير، فهو لم يكن في معنى قطعيّ معلوم لكلّ عربيّ، بل كان في علاقة قصة يذكرها القرآن بحادثة أو في علاقة القسم بما يليه من معانٍ، أو في معنى مفردة تحتمل معنيين أو أكثر، وقد وجدنا المفسّرين ذهبوا إلى أبعدها عن ذهن العربيّ واستخدام الكلمة في ذلك الوقت.

وأحسب أن شيوخنا الذين قرأنا تفاسيرهم لو كان لهم أن يقرؤوا ما كتبناه لما وسعهم إلّا أن يقبلوه أو يقرّوا بأنّه احتمال ممكن. أمّا الناس من أهل هذا الزمان، لا سيّما من كان منهم قارئا للتفاسير، فسيقع في قلوبهم أنّ لهذا المنهج

ضرورته المعاصرة، إلّا أن يكونوا ممّن يقدّسون كلّ قديم دون نظر أو تفكير.

وبعد هذا التوضيح فلندلف إلى هذه السورة القصيرة التي سنرى فيها أنّها تدور حول فكرة وحيدة محوريّة في الدين. ولنلاحظ أنّ ما قبلها من سور كانت الفجر والليل والضحى والشرح، وكلّها سوى الشرح أوقات من النهار، جاء كلّ منها ليكون ما يقسم الله به، ثم يكون مجازًا لما يليه من جواب القسم، ولذلك فإنّ كلمة العصر إذا وضعت الأمر في سياقه رأيت أنّ المقصود هو وقت العصر، لا تعاقب الزمان، ولكنّ الفهم القائل بأنّ العصر هنا تعني الزمان لا يحدث فرقًا كبيرًا في فهم السورة ككلّ.

إضاءات لغويّة

والعصر: العصر وقت زوال الشمس، ومنه يبدأ انحسار النهار. واليوم العربيّ يبدأ من الليل وينتهي بالغروب. وهنا إذا شئنا استحضار معنى العصر سيكون قسما بعظمة هذا الوقت من جهة، وتذكيرًا بفكرة التناقص التي تحضر في ذلك الوقت من النهار إذ يوشك النهار على الاضمحلال وتسعى الشمس فيه نحو مغيبها.

خسر: مطلق الخسارة والنقص.

الذين آمنوا: الذين تعاهدوا على الأمن، وإذا لحقها شيء "آمنوا بالله" فيكون ذلك مما دخل في عهدهم من قسم بالله، أو كان بسبب اعتقادهم بالله ربًّا للناس أجمعين، تستحقّ كلّ مخلوقاته الأمن والإحسان. وهو معنى غير مطروق لدى المفسّرين الذين أثّر فيهم ما اصطلح عليه في الإسلام من مفهوم للإيمان، فهجروا المعنى الصوتي والمعجميّ للكلمة وفسّروا السابق باللاحق، وهذا ما تجنّبناه.

تواصوا: التواصي من الوصيّة، فإذا كان الفعل جماعيًّا تفاعليًّا كما في هذه الصيغة فهو الحرص على الشيء وتشجيع الآخرين عليه.

الحقّ: الحقّ من الجذر (ح ق ق) وفيه معنى الثبات، والحقيقة هي ما يثبت حول شيء، فما لم يتغيّر مع الزمن والتجريب فهو حقّ، وهو اسم من أسماء الله، لكنّه هنا اسم مفهوم الحقّ، وحقّ المرء ما كان نصيبه الصحيح، فهو أيضًا يحمل معنى العدل.

مقالة السورة

أقسم لكم بوقت العصر وأذكّركم به، وبما فيه من نقصان مستمرّ لضوء النهار، إنّ الإنسان في مطلقه جماعة وأفرادًا لفي نقصان مستمرّ، فماله يزول وصحّته تزول وجماعته تتفرّق، باستثناء نوع خاصّ من الناس لا يعانون

الشعور بهذا النقص بسبب صفتهم، وهم الذين يتعاهدون على الأمن ويفون بعهدهم هذا بأن يؤامن كلّ منهم الآخر فيأمنه ويؤمّنه، والتزموا الصالح من الأعمال، وحرصوا في جماعة على إحقاق الحقّ والتزام الحقيقة، وحرصوا على أن يصبروا على ما أصابهم ويثبتوا عليه.

المعنى الشموليّ

القراءة الشمولية

سورة العصر هي إعلان وجودي عميق عن طبيعة الإنسان وسننه في الحياة. فهي تقدم رؤية شاملة للخسران الإنساني، وتطرح الحل الجماعي كمخرج من دائرة التناقص والفناء.

تنطلق السورة من لحظة زوال الشمس، حيث يبدأ النهار بالاضمحلال، لتجعل هذه اللحظة استعارة حية لحالة الإنسان الوجودية. فكما تسعى الشمس نحو مغيبها، يسعى الإنسان نحو الفناء، محاطًا بدائرة مستمرة من النقصان والخسران.

لكن السورة لا تقف عند حدود اليأس، بل تقدم منهجًا للخلاص. فالخروج من دائرة الخسران يكون عبر أربعة مبادئ جوهرية:

أولهــا: التعــاهــد على الأمن، وهو أعمق من مجرد الاطمئنان، بل هو عهد جماعي يقوم على ضـــمان الأمن بين الناس.

ثانيها: العمل الصالح، كمنهج حياة يقاوم التراجع والفناء.

ثالثها: التواصي بالحق، أي الحرص المشترك على الثبات والاستمرار في المبادئ الصحيحة.

رابعها: التواصي بالصبر، كقدرة على التحمل والثبات في مواجهة التحديات.

إنها دعوة جماعية للخروج من دائرة الفردية والخســران، نحو منظومة قيمية تحمي الإنسان من التفكك والضياع.

الســـورة تقدم رؤيـة متفائلـة رغم وعيها العميق بطبيعة الإنســان الهشــة. فالخلاص ليس فرديًا، بل جماعي. وليس في الانعزال، بل في التواصل والتعاهد.

تعليق أخير

إنّ قول المفسّــرين إنّ العصــر هنا هو الزمان بمطلقه، لا يتنـاســب مع فكرة الخســران، فنحن نرى أنّ البشــريّة في زيادة ورفاه مطّرد مســـتمرّ، وإن كانت أمّتنا تعاني من

خسارة مستمرّة الآن، فهذا أتى بعد نماء لاحق لزمن نزول السـورة، فنحن نلاحظ أنّ الزمان ليس مرتبطًا بالخسـارة للبشرية ككلّ.

مقالات القرآن العظيم 15 | سورة العاديات

هذه سـورة مختلف فيها، فمن العلماء من رآها مكّيّة بسـبب خصـائصـها من قصـر الآيات ومعانيها العامّة، ومنهم من رآها مدنيّة لأنّه ربطها بالغزو والمعارك، وبالتخصـيص بسريّة أرسلها الرسول فطال غيابها.

أمّا منهجنا فالتزم فرضًـا لازمًا عليه، وهو الترتيب الذي ندرك أنّه ليس يقينيًّا وأنّه مختلف فيه، وفي هذا الترتيب هي مكّيّـة، فلم تكن خيـل المسـلمين غزت، بـل كـانوا مستضـعفين بين الناس، وعلى هذا فتناولنا للآيات سـيكون في هذا السـياق، يسـاعدنا على هذه القراءة عموميّة معاني الآيـة والتي لا تخصّـص الكلام عن حـدث بعينـه، ولو خصّصته لظهر زمن نزولها وذهب الاختلاف.

نعرف أنّ عدوان كبار مكّة على الرسـول ومن اتّبعه كان في تصـاعد حتّى وقت الهجرة، والسـورة وإن لم تختصّ بمواجهة معيّنة، غير أنّها تمجّد القوّة وتجعلها مناط القسـم

كما سيأتي في المقال، لكنّها في جواب القسم تتحدّث عن صفة الإنسان، وتحاول وعظه.

إضاءات لغويّة

العاديات: هي الخيل إذ تعدو، من الجذر "ع د و" الذي يدل على الجري والتجاوز، ومن ذلك كان العادي هو المعتدي أيضًا. فهي الخيل إذ تعدو لغزو أو حرب.

ضبحًا: من الضبح وهو صوت لهاث الخيل، أو صوت عدوها في عمومه، ويلاحظ في التركيب اللغوي في "والعاديات ضبحًا" غير مألوف لدى العربيّ اليوم، ومن الناس من يظنّه كإملاء للفعل أي: فلتضبح العاديات، لكنّ المعنى المستقرّ له أنّه يقسم بالخيل في حالها ذلك إذ تعدو فتضبح.

فالموريات قدحًا: الإيراء هو اشتعال النار، وهنا هي الخيل أيضًا إذ توري حوافرها إذا عدت على أرض الصوّان، وهذه خصيصة فيها فجاز أن تسمّى بذلك، والقدح هو إخراج الشرر. فالآية تصف الخيل وهي تضرب بحوافرها الصخور فتقدح الشرر.

الفاء: الفاء تتلاحق للعطف بمعنى التعاقب، وهذا العطف قد يمتدّ إلى القسم، وقد يكون استطرادًا في وصف حال الخيل.

فالمغيرات صبحا: الإغارة هي الهجوم المفاجئ، وهنا يأتي الهجوم في الصباح وهو من أوقات الإغارة المفضّلة عند العرب، لكي يكون لهم الغلبة على القوم إذا ارتاحوا، وكان النهار عونًا لمن لا يعرف المكان، فالظلمة ميزة للمدافع الذي يعرف منطقته.

فأثرن بهِ نَقعا: النقع هو الغبار، وهنا هو غبار المعركة وعفار الخيل. فالخيل تثير الغبار أثناء الهجوم.

فوسطن بهِ جمعا: أي دخلت الخيل بغبارها صفوف العدوّ فتوسّطته.

كنود: من الجذر "ك ن د" الذي له عدد من الدلالات في لهجات عربية مختلفة، فهو الجاحد والمتذمّر والبخيل والعاصي، وكلّها تدور في فلك واحد، وهو من يعاند ربًّا أنعم عليه فلا يحمل مسؤوليّة النعمة من شكر وصدقة.

لربّه: اللام للملكية والتعلق. والربّ هو الراعي كما علمنا، ولا يجوز الاكتفاء في شرحها بأن نقول إن الإنسان جاحد فقط، فحينها كان يكفي أن يقول القرآن إنّ الإنسان لكنود، لكنّه قال لربّه، ومع سياق الآية يظهر وكأنّ الإنسان في

جحوده يعلن الحرب على راعيه، وأيّ راعٍ؟ ربّ يملك القوّة ويقسم بها.

مقالة السورة

أقسم بالنعمة الجليلة التي أنعمت عليكم، ألا وهي الخيل في أوج جريها وعدوها في الغزو، فبها إذ تقدح حوافرها شررًا يوقد نار الحرب، فبها إذ تباغت القوم في الصباح، فتثير الغبار، فتشقّ الصفوف: إنّ الإنسان جاحد فضلَ ربّه عليه، بما يعانده، فكأنّه في ذلك يعلن الحرب على الله ذي القوّة الذي يقسم بهذه القوّة، وإنّه لشديد الحبّ للمال (ومن المعلوم أنّ أكثر الغزو لسلب المال). ألا لو تفكّر لتذكّر أنّ كل ما في القبور سيبعثر، ويخرج للحياة مرّة أخرى، وكلّ ما في الصدور سيحصّل من أصحابه من الموتى (وذكر الموت في سياق المعارك يحيل إلى القتل عدوانًا)، وإنّ الله لعارف خبير بهم، وبما ستكون عليه حالهم يوم القيامة.

القراءة الشمولية

سورة العاديات تقدم صورة حية للصراع الإنساني، متخذة من المعركة استعارة للحياة. فكما تندفع الخيل بقوة وحيوية، يندفع الإنسان في متاهات الدنيا، ناسيًا غايته العليا.

الخيل هنا رمز للقوة والسـرعة والإثارة، بينما الإنسـان رمز للجحود والنسـيان. فرغم كل قوته، يبقى الإنسـان محدودًا، وسيأتي يوم يُكشف فيه كل مستور.

الرسالة الجوهرية: التذكير بعمق المسؤولية الإنسانية، وأن كل ما يُخفى سـيُظهر، وأن الحياة أعمق من مجرد التراكم المادي.

المعنى الشمولي

يذكّرنا الله بنعمة الخيل التي هي مناط قوّة الناس في ذلك الزمن، وبفتنة القوّة التي اعتدينا بها على بعضـنا بعضًا، وطغينا في استخدامها، ويقسم لنا بالقوّة التي هي من نعمه علينا، فيكون جواب قسمه أنّنا نحن معشر البشر جاحدون للنعمة إذ لم نوظّفها في مكانها، ولم نحمل ما يتبعها من مسـؤوليّة، وأنّنا ارتكبنا هذه المعاصـي حبًّا في المال، ثمّ يذكّرنا جميعًا أنّنا عائدون إليه، وسـيسـتخرج منّا أخبارنا وشـهاداتنا وأعمالنا ونوايانا لتكون شـاهدة علينا، ثمّ يذكّرنا أنّه خبير بنا وبحالنا في ذلك اليوم.

إذًا هي سـورة تدور حول القوّة وما نفعله نحن بهذه القوّة، فهل نحمي بها الضـعيف، أم يعدو بعضـنا على بعض بها، كحال العرب في الجاهليّة، وهذا التذكير وقرن مشـهد الغزو بحبّ المال إنّما هو تحذير من هذا السـلوك، وأنّ

علينا أن نشكر نعمته بأن يحسن بعضنا إلى الآخر، ففي النهاية ثمّة يوم قيامة وحساب.

مقالات القرآن العظيم 16 | سورة الكوثر

بسبب قصر السورتين وقصر المقالين حولهما، فإنّي رأيت أن أجمعهما معًا في مقالة متتالية تمرّ على السورة بعد السورة.

الكوثر

اتّهم كبار الكفّار النبيّ بالبَتَر، وهو الانقطاع وقد يأتي بمعنى انقطاع النسل كما فهم أكثر المفسّرين، وقد تعني كما نرى انقطاع الوحي عن الرسول كما تقدّم في سور سابقة النزول حسب الترتيب المعتمد، وقد يكون المقصود انقطاع الكلام في الجدال أيضًا، ولا نرى أنّهم قصدوا انقطاع الولد لأنّ الرسول كان متزوّجاً من خديجة، وفي السيرة أنّه كان له منها عقب، وهي إذ ذاك مسنّة لا يستغرب أن تكفّ عن الولد.

وما نذهب إليه هو أنّ الكوثر ليس نهرًا في الجنّة كما قيل، بل هو تدفّق القرآن على لسان النبيّ، وأنّ صفة أبتر قيلت كما سبق في غيرها عن تقطّع الوحي، ولكنها هذه المرّة لم

تؤثّر في النبيّ، فلم تستدع استنهاضًا لهمّته أو تلطّفًا به كما سبق، ثم يقول الله: بل إن الذي يعاديك هو المنقطع الذي لا يجد حجّة يدعم بها اختياره تكذيبك.

إضاءات لغويّة

الكوثر: من "ك ث ر" وفيـه معنى الكثرة والوفرة، وهو على وزن فوعل للمبالغة، والكوثر الماء المتدفق الكثير.

صلِّ: من "ص ل ي" وأصلـه الصلـة والارتباط، وهي هنا إقامة الصلة مع الله، ومع الله من خلال الناس.

انحر: من "ن ح ر" والنحر أيضًـا هو موضـع في الرقبة، وهو هنا فعل النحر أي التضـــحية والذبح، ويقال في من ينحر ليطعم الطعام للفقراء.

شانئك: من "ش ن أ" وهو البغض والكراهية الشديدة، وفيه معنى العداوة التي ليس لها ســبب واضـــح، كما نرى من استخدامها في كلام العرب.

الأبتر: من "ب ت ر" وهو القطع والانقطاع من الأصـــل، ويستعار للدلالة على انقطاع الأثر كما فهم أكثر المفسّرين، أو انقطاع الحجة والقول كما نفهم نحن.

مقالة السورة

إنا أعطيناك يا محمد الخير المتدفق الكثير، وهو القرآن الذي يتنزّل عليك، فلا تخف انقطاعه، وعليك أن تقيم الصلاة لربّك، وأن تقدّم تطعم الطعام للمساكين تقرّبًا لله، فهذه صلة مع الله أيضًا، واعلم أن من يبغضك ويعاديك هو المنقطع حقًّا، فلا حجة له ولا برهان يدعم موقفه.

المعنى الشمولي

تؤسس السورة لمعادلة العطاء والتضحية: عطاء إلهي متدفق يقابله عمل وتضحية من العبد. وتكشف عن قانون إلهي: من يتهم الآخرين بالنقص والانقطاع يكون هو المنقطع حقيقة.

الربط بين العطاء (الكوثر) والعمل (الصلاة والنحر) يؤسس لمفهوم الشكر العملي، فالنعمة تستوجب عملاً وتضحية. كما تقدم السورة نموذجاً في الرد على الشائعات: لا بالنفي المباشر، بل بتأكيد الحقائق الإيجابية وكشف حقيقة المعترضين.

وتظل السورة درساً في أن العطاء الإلهي لا ينقطع رغم محاولات المشككين، وأن الانقطاع الحقيقي هو انقطاع الحجة والبرهان عند المعارضين.

التكاثر

في سياق المكاثرة بالمال والولد، تأتي هذه السورة لتتحدّث إلى الإنسانيّة في كلّ وقت وكلّ ساعة، وثمّة علاقة دقيقة في هذه السورة بين التكاثر (طلب الكثرة والمكاثرة) والمقابر (الموت)، فالإنسان يظل منشغلاً بالمكاثرة في المال والتفاخر بالنعم، ظانّاً أن هذا دليل على كرامته عند الله، حتى يموت ويُقبر. وفي تعبير "زرتم المقابر" إشارة إلى أن الإقامة في القبور مؤقّتة كالزيارة، ثمّ إنّه ثمة بعث ونشور.

إضاءات لغويّة

ألهاكم: من "ل هـ و" وفيه معنى الانشغال والإعراض. واللهو ما يشغل الإنسان عما يهمه.

التكاثر: من "ك ث ر" وهو التنافس في الكثرة، والتفاعل هنا للمشاركة، أي كل طرف يحاول أن يكون أكثر من الآخر.

زرتم: من "ز و ر" وهو القصد والإتيان، والزيارة إتيان مؤقت لا إقامة دائمة.

المقابر: معروفة وهي هنا كناية عن الموت.

علم اليقين: العلم من "ع ل م" وهو الإدراك، واليقين من "ي ق ن" وهو العلم الثابت.

عين اليقين: العين من "ع ي ن" وهي الرؤية المباشـــرة، فعين اليقين أقوى من علم اليقين لأنه مشـــاهدة، فثمّة يقين مزيّف قد يظنّه الإنسـان يقينًا، لكنّه عند المشـهد يعرف أنّه كان واهمًا، ولكنّ علم اليقين هنا سيفضي إلى عين اليقين.

مقالة السورة

شـغلكم التنافس في تكثير المال والتفاخر به عن التفكر في مصـيركم، وظللتم في هذا اللهو حتى وصـلتم القبور. كلا، سـوف تعلمون عاقبة هذا الانشـغال. أؤكد هذا ثانية وثالثة: لولا علمتم العلم اليقينيّ، لسـيطرت النـار التي أعـدّت للظالمين على أذهانكم فشغلتكم عن التكاثر والمادّة، ثمّ إنّكم يوم القيامة سـترونها رؤية مباشـرة لا شـك فيها. وحينئذ ستُسألُنَّ عن كل نعيم تنافستم فيه وتكاثرتم به.

المعنى الشمولي

تكشـف السـورة عن آفة نفسـية عميقة: انشـغال الإنسـان بـالتنـافس المـادي حتى الموت. وتقدم مفـارقـة بلاغيـة بين قصـــر الإقامة في الدنيا (وكأنّ حياة الإنســـان طريقه إلى زيارة القبر زيارة مؤقّتة) وطول الانشـغال بالأمور المادّيّة فيها.

تتدرج السورة في تأكيد الحقيقة: من التوبيخ (ألهاكم)، إلى الردع (كلا)، إلى التأكيد المتكرر (سوف تعلمون)، إلى تدرج المعرفة: من العلم النظري (علم اليقين)، إلى المشاهدة المباشرة (عين اليقين).

تختم السورة بحقيقة صادمة: النعيم الذي كان محل تكاثر وتفاخر سيكون موضع سؤال ومحاسبة. وفي هذا قلب للمفاهيم: ما ظنه الإنسان مصدر فخر سيكون مصدر مساءلة.

مقالات القرآن العظيم 17 | سورتا الماعون والكافرون

نحن أمام سورتين قصيرتين أخريين رأينا أن نجمعهما في مقال واحد لقصرهما وقصر الكلام حولهما.

سورة الماعون

تربط هذه السورة بين التكذيب بالدين ونتائجه السلوكية من جهة، وبين التديّن الشكليّ الذي لا يؤثر في سلوك صاحبه من جهة أخرى. فالتكذيب بالدين هو رفض النظام الذي يدعو له رسول الله، والمصلّون الساهون عن صلاتهم، هم يصلّون شكلًا، لكنّهم ساهون عن معنى الصلاة جوهرًا، فهم يشتركون مع المكذبين في النتيجة العملية، وإن اختلفوا في الظاهر.

إضاءات لغويّة

أرأيت الذي يكذّب بالدين: أي انظر إلى من يرفض هذا النظام الذي تدعو له، وانظر صفته التي ستأتي. فذلك الذي يدعّ اليتيم: أي أنّ هو ذاته من يزجر اليتيم ويرفض أن يطعمه بل يدعّه أي يدفع به جسديًّا، فتلك صفته الفكريّة وهذه صفته العمليّة.

يحضّ: من "ح ض ض" وفيه معنى الحث والتشجيع. والتعبير "لا يحض" أبلغ من "لا يطعم" لأنه يشمل الحث

والتشـجيع، فمن لا يطعم قد يكون فقيرًا، لكن من لا يحضّ فهو بخيل حتّى بالكلمة.

ساهون: من "س هـ و" وفيه معنى الغفلة وعدم الإدراك.

يراؤون: من "ر أ ي" على وزن يفـاعلون، وهو إظهـار العمل لأجل الظهور بمظهر محدّد أمام الناس.

المـاعون: من "م ع ن" على وزن فـاعول، وهو مـا كـان أداؤه سـهلا يسيرا عليك، ويسمّى به سقط المتاع من أشياء تستخدم يوميًّا.

مقالة السورة

انظر إلى الذي يكذّب بدعوتك إلى النظام الذي فيه حياة الناس، تجده يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً، ولا يشـــجع غيره على إطعام المســـكين، فالهلاك لمن يشـــابهه في ســـلوكه ممّن يؤدون الصـــلاة شـــكليًّا، وهم غافلون عن معناها الحقيقيّ، إنّهم يؤدّونهـا ريـاءً ليراهم النـاس، ثم يمنعون عن النـاس المساعدة في أمور يسيرة عليهم. ليس ثمّة فرق بين هؤلاء الذين يزعمون اتّبـاعك ثمّ لا يؤدّون مـا عليهم وبين ذلك الذي يجحد علانيـة بدعوى هذا النظـام الإلهيّ الذي يكفل للضعيف حقّه.

المعنى الشمولي

تؤسس السورة لمفهوم عميق في العلاقة بين العقيدة والسلوك، فتقرن بين الناس حسب مسلكهم لا حسب معتقدهم، فالمفارقة العميقة في السورة أن المصلّين المرائين يلتقون في النتيجة مع المكذبين بالدين: كلاهما يمنع العون عن المحتاجين. وكأنّ السورة تقول: إنّ الله ينظر لما تؤدّونه من معونة للناس، فإذا صلّيتم ثمّ تركتم مكارم الأخلاق فصلاتكم هذه رياء فقط.

سورة الكافرون

قيل إنّ هذه السورة نزلت ردًّا على عرض كبراء مكّة على الرسول أن يعبد آلهتهم عامًا، وأن يعبدوا الله عامًا، بالتناوب. وفي السورة ما يشي بصدق هذا القول من المراوحة بين حال الرسول وحالهم.

ولا بدّ أن نذكّر أنّ كلمة كافر ليست تعني المنكر أو المكذّب فقط، بل هو من يشوّش على الدعوة ويحاربها ويكفر الناس حقّهم في الاختيار، وأنّ العبادة تعني الانقياد والطاعة الواعية، وأنّ الدين هو كل ما دان له الإنسان فدين الفرد ديدنه وعادته، ودين الملك سلطته، أي أنّ الدين نظام الحياة، لا الاعتقاد المجرّد.

هذا تذكير بمعاني الكلمات التي سبق شرحها في سور مرّت بنا سابقًا.

إضاءات لغويّة

المراوحة والتكرار: من يقرأ السورة يجد فيها مراوحة بين لا أنا فاعل كذا، ولا أنتم فاعلون كذا، ولا أنا فاعل كذا... وهذه المراوحة فيها من المكاشفة شيء كثير، فكأنّه يقول لهم: هذا لن يحدث من طرفي ولا من طرفكم، لا بعضه ولا كلّه، لا الآن ولا في المستقبل، ولو كرّرتم عرضكم هذا ألف مرّة.

أمّا التكرار فهو تكرار الآية الثالثة في الآية الخامسة فهي تأتي بالصيغة ذاتها، وهي صيغة مقبولة في اللغة العربيّة للحاضر والمستقبل معًا، فكأنه يقول: لا تفعلون هذا الآن، ولن تفعلوه في المستقبل. وكان التكرار هنا تكرار وصفهم وصفًا مطلقًا بأنّهم لا يعبدون الله الذي يطيعه الرسول، فيأتي أيضًا توكيدًا، وهذا التوكيد مناسبته أنّهم يرون أنفسهم يعبدون الله.

لكم دينكم ولي دينِ: أي لي ديني، وكثيرًا ما تحذف الياء في النهاية كما رأينا في والليل إذا يسر، وإلّا لكانت ولي دينٌ.

مقالة السورة

نحضّك يا محمّد ونأذن لك أن تقول للكافرين الذين يشوّشون على دعوتك، ويحاولون إيجاد حلّ وسط معك ما يأتي: أنا لا أعبد ما تعبدون من أصنام (وهذا نفي للحاضر)، وإنّ حقيقتكم أنّكم لم تعبدوا الله الذي أعبده سابقًا ولا راهنا، وأنا لن أعبد ما عبدتموه، وإنّكم لن تعبدوا الله مستقبلا، لكم نظام عقيدة وحياة، ولي نظام عقيدة وحياة، وهذان النظامان لا يلتقيان.

المعنى الشمولي

تؤسس السورة لمبدأ جوهري في العلاقة بين الحق والباطل: استحالة المساومة أو الحل الوسط. فهي ترفض فكرة التناوب في العبادة أو المداورة في الطاعة، لأن الأمر يتعلق بنظامين متكاملين للحياة لا يمكن المزج بينهما.

تتجلى قوة الرفض في بناء السورة نفسه، حيث تأتي المراوحة بين النفي المتكرر من الطرفين لتؤكد:

- استحالة اللقاء بين النظامين في الحاضر
- استحالة اللقاء بينهما في المستقبل

- شمول هذا الاستحالة لكل صور العبادة والطاعة

التكرار في السورة ليس مجرد تأكيد لفظي، بل هو تأسيس لموقف نهائي لا رجعة فيه. وكأن الســـورة تقطع الطريق على أي محاولة مستقبلية للمساومة.

الختام بـــــــ "لكم دينكم ولي دين" ليس دعوة للتعايش بين النظامين، بل إعلان عن التمايز الكامل بينهما. فالدين هنا يعني نظام الحياة كله، وليس مجرد الطقوس والشعائر.

هكذا تقدم الســـورة درســـاً في الثبات على المبدأ، وفي الوضـــوح والمكاشـــفة، وفي رفض الحلول الوســـط في القضايا المصيريّة.

مقالات القرآن العظيم 18 | سورة الفيل

كانت حادثة الفيل من الحوادث المشـــهورة عند العرب في مكّة وغيرها، وكانوا يؤرّخون بها حسب ما وصلنا، وتمثل رمزاً لحماية الله للبيت الحرام. ولذلك يأتي الســـؤال في الســـورة "ألم تر" بمعنى ألم تســـمع وتعلم، إذ كان الناس يتناقلون هذه القصـــة، حتّى إنّها ذهبت مثلًا يقال في الرجل لا يعلم ما أخّره: حبسه حابس الفيل. أي منعه الله الذي منع الفيل من إتيان قصده .

تظل السورة درساً في أن النصر ليس بالعدد والعدة، وأن التدبير الإلهي قد يأتي من حيث لا يحتســـب المتجبرون، ودرسًـــا ســـياســـيًّا في أنّك وإن حرصـــت على التمايز بين النظام الذي تدعو له والنظام القائم كما في الســـورة التي ســـبقت هذه نزولا "الكافرون"، فيحســـن أن تذكر ما تتقاطع به معهم فيما تقدّس وتعلي من شـــأنه، وهذا حاضـــر ســـابقًا في الإعلاء من شـــأن مكارم الأخلاق والجود وســـواه، وقد حضـــر الآن ليبرّأ الرسـول ممّا يتّهمه به كبار مكّة من أنّه يستهدف الكعبة المقدّسة بين العرب.

إضاءات لغويّة

ألم تر: من "ر أ ي" وتســـتخدم للعلم والمعرفة، لا للرؤية البصرية فقط.

كيد: من "ك ي د" وفيه معنى التدبير والمكر.

تضليل: من "ض ل ل" وهو الضياع والبطلان، أي جعل خطتهم باطلة ضائعة.

أبابيل: جماعات متتابعة، وقيل متفرقة، ولا تضادّ في الحقيقة بين التفرّق والتتابع، وجاءت في وصف الخيل، والإبل إذا كان في جماعات منفصلة متلاحقة.

سجيل: قيل من "س ج ل" أي المكتوب والمقدر، وقيل من الفارسية "سنگ گِل" أي حجر وطين، والراجح أنّها فارسيّة معرّبة بمعنى الحجارة المكوّنة من الحصى والطين.

كعصف: من "ع ص ف" وهو ورق الزرع اليابس، وهم هنا كالعصف المأكول، وليسوا عصفًا مأكولًا على الحقيقة، فأداة الكاف للتشبيه، أي أنّ أثرهم انقطع.

مأكول: من "أ ك ل" وفيه معنى كلّ ما جرى عليه النقص، فالمأكول الذي ينقص عدده مع مرّ الزمن.

مقالة السورة

انظر كيف صنع ربك - الذي يرعاك ويرعى هذا البيت - بأصحاب الفيل، وأنت تعلمهم إذ يتناقل الناس خبر الذين جاؤوا لهدم الكعبة. ألم يجعل خطتهم المحكمة في ضياع

وبطلان؟ وأرسل عليهم طيوراً تأتي في جماعات متتابعة، ترمي عليهم حجارة مخلوطة بالطين، فبات خبرهم كأنّه العشب اليابس الذي تنثره الرياح وتدوسه الدواب.

المعنى الشمولي

تؤسس السورة لقانون إلهي في حماية المقدسات: القوة المادية مهما عظمت (الفيل) لا تقف أمام القدرة الإلهية. وتكشف عن سنة كونية: الله قد يستخدم أضعف مخلوقاته (الطير) لإبطال كيد أقوى الجيوش (الفيل).

تربط السورة بين الحدث التاريخي والدرس العقائدي: فحماية البيت ليست حدثاً عابراً، بل تأسيس لمبدأ استمرار الرعاية الإلهية. ولذلك جاء التعبير بـ "ربك" ليربط بين رعاية الله للبيت ورعايته لنبيه، وهي سورة فيها طمأنة لعامّة قريش وخاصّتهم بقدسيّة الكعبة عند محمّد.

مقالات القرآن العظيم 19 | قل وقل وقل

في هذه المقالة سنمرّ على ثلاث سور قصيرة من القرآن وهي على الترتيب الفلق والناس والإخلاص، وهذا ترتيب نزولها حسب الترتيب الذي اعتمدناه والذي ندرك أنّه ليس قطعيًّا، فقد قيل إنّ المعوّذتين نزلتا في حادثة متعلّقة بيهود المدينة ومحاولة سحر الرسول، ولكنّنا اعتمدنا ترتيبًا فرض علينا منهجًا لا نخرج عنه، وفيه أنّها سور مكّيّة، نزلت دون مناسبة نزول معروفة لنا.

يتردّد في هذه السور الثلاثة ما مرّ معنا في سورة "الكافرون" من أمر "قُلْ"، والقول معروف، وقد قال المشكّكون إنّه يجب حذف أمر قل، فالقرآن يعلّمنا أن نقول ما يليه لا أن نكرّره، وهذا الكلام وإن بدا معقولًا للوهلة الأولى، فإنّه معيب، ذلك أنّ هذه السور تتحدّث بلسان الإنسان الذي يقرؤها، وهي تطلب هذا القول من الناس، ولو مرّ في القرآن تعوّذ مستقل عن أمر قل لقال المشكّكون: كيف يتعوّذ الله من شرّ شيء وهو القادر على كلّ شيء، وكيف يتعوّذ بنفسه!

وسنأخذ الإضاءات اللغويّة في السور الثلاث معًا، ثمّ نقرأ مقالة كلّ سورة مرفقة، معلّقين عليها بالمعنى الشموليّ مدمجًا في المقالة دون أن نفصله عنها.

إضاءات لغويّة

قل: أمر بأن يكون هذا قولك، أي ما تراه وما تقول به وليس فقط ما تردّده.

أعوذ: من "ع و ذ" وفيه معنى الالتجاء وطلب الحماية.

ربّ الفلق: أي صاحب الفجر وفالق الضوء، من ينير العالم بانفلاق الفجر، والربّ الراعي والمالك كما تقدّم.

غاسق إذا وقب: أي الليل إذا اشتدّت ظلمته، والليل في ذاته سنّة كونيّة من خلق الله، لكنّ الله هنا اختار أن يسمّى ربّ الفلق، فأنت تعوذ بالنور من الظلمة، فهذا قد يحمل على معناه المجازيّ أيضًا بأن تلتجئ إلى الهدى من الضلال.

ومن شرّ النفّاثات في العقد: النفث في العقد طقس من طقوس السحر، والشرّ هنا مسند إلى الساحر لا إلى السحر، وهذا فيه معنى عظيم لمن يعمل عقله، فالآية لا تصف السحر بأنّه ذو قوّة، ولكنّها تصف الساحر بأنّه ذو شرّ، وشرّه هذا يجدر أن يتعوّذ منه المؤمن. وقد يؤخذ المعنى على من يحاول تعظيم الخلاف فمن ينفث في النار يحاول إشعالها، والعقد هي موضع كلّ خلاف، وليس هذا بالمعنى البعيد أو غير المقبول.

ومن شرّ حاسد إذا حسد: والحاسد معروف، وهو الذي كره الخير لغيره، فمن أراد مثل ما عند غيره من خير دون أن يكرهه لهم فقط غبطهم، ولم يحسدهم. وهنا نلاحظ أنّ الشرّ هو شــرّ الحاســد لا شــرّ الحســد في ذاته كما تقول الآية، فالحاسد إذا حسد ارتكب شرًّا بيده أو لسانه.

ربّ الناس ملك الناس إله الناس: هذه ثلاث صـــفات كلّ منها له أهمّيّته للمؤمن، فالله ربّ الناس كلّها أي راعيها كلّها، ملكها كلّها أي مالك أمر الناس كلّهم، إله الناس أي ملجؤهم ومعبودهم بحقّ.

الوسواس الخنّاس: الوسواس ما وسوست به نفسك لك، أي ما دار في خلدك من شكوك لحوحة لجوجة، والخنّاس لأنه يخنس أي يهدأ ويضمحلّ إذا راقب الإنسان مسار ذهنه ولم يتركه للشكوك.

من الجنّة والناس: أي ممّا خفي فكان هاجسًـــا خفيًّا داخل الصـــدر، أو ما كان بشـــرًا يتعمّد خلق الوســـاوس وإثارة الشكوك.

هو الله أحد: أسلوب تقديم الضمير "هو" على ما يعود عليه "الله"، أســـلوب عربيّ فيه معنى الحصـــر، فالله واحد ولا يكون إلّا واحدًا، وهذا أوّل صـــدام صـــريح مع عقيدة المشركين.

الله الصـــمد: أي الذي لا يمكن تجزئته وتفتيته، فلا يكون آلهة كثيرة، بل إلها واحدًا ذا كينونة متّحدة ثابتة.

لم يلد ولم يولد: أي ليس له ولد منه، فهو لا يتكاثر، ولم يكن له والد، فهو أصـــل في ذاته لا فرعًا عن غيره، وهو ليس محتاجًا للفرع فهو أزليّ أبديّ.

ولم يكن له كفوًا أحد: أي لم يكن مســـاويًا لأي مخلوق من مخلوقاته، والكفو عند العرب الزوج أيضًـــا، فالله فرد لا مثنى له، وهنا في إتيانها بعد "لم يلد ولم يولد" تحيل أيضًـا على استحالة الزوج على الله.

مقالة سورة الفلق

فلتكن دعواك أن تلجأ إلى ربّ الفجر فالق الضوء من شرّ كلّ ليل إذا دجى وتمكّن، ومن شرّ كلّ ساحر يسحر قلوب الناس وعقولهم، ومن شـرّ كلّ حاسـد يحاول أن يضـرّك بدافع أنّه يرى نفسه أولى منك بالنعمة.

وفي معناها الشموليّ أنّ ثمّة شرورًا مختلفة على الإنسان أن يطلب الحماية منها، ويكون التجاؤه لربّ الضـــوء والهدى، أي يكون بالحرص على الهدى الواضـــح، وهذه الشرور هي شرّ الظرف الكونيّ كالليل إذا اشتدّ سواده،

وشرّ من يسحر عقول الناس بأفعاله، أو من يحرص على الفتنة بتعظيم الخلافات، وشرّ من يرى نفسه أحقّ منك بالنعمة فيحاول إيذاءك بقوله أو فعله.

مقالة سورة الناس

فلتكن دعواك أن تلتجئ إلى الله الذي هو راعي الناس ومالك أمرها ومعبودها وملجؤها، من شرّ ما يصيبك من وساوس وشكوك تثور وتهدأ لكنّها لا تموت، وقد تتولّد هذه الوساوس بطريقة خفيّة في صدر الإنسان منكم، أو تكون بسبب سعي بعض الناس إلى بثّ الشكوك.

وفي معناها الشموليّ أنّ الله هو الراعي والمالك والملتجأ من كلّ وسواس يصيبك مهما كان مصدره. والوسواس هو الشكّ الملحّ غير المنطقيّ.

مقالة سورة الإخلاص

فلتكن دعواك أنّ الله واحد ثابت أزليّ أبديّ لا يمكن توزيعه في آلهة، ويستحيل في حقّه الولد والوالد والزوج، وليس مثله أحد أو شيء.

وفي معناها الشـــموليّ نجد أنّها تحوي مقولة فلســفيّة حول الله بأنّه فرد ثابت خارج ما نعرف من ظروف زمانيّة أو مكانيّة ولا يجوز في حقّه التعدّد بأيّ صـورة، فليس مشـتقًّا من إله سبقه وليس له إله يخلفه ولا إله يكون معه.

المنظومة المتكاملة للحماية

تأتي صيغة "قل" في مطلع كل سورة لتؤكد أن هذه السور ليســـت مجرد تلاوة، بل هي تعليم منهج متكامل للحماية. فالأمر "قل" يجعل من هذه الســـور دعاءً دائماً لكل مؤمن في كل زمان ومكان.

أما البعد النفسـي فيتجلى في التدرج من الشـرور الخارجية في ســورة الفلق (الظلام، الســحر، الحســد) إلى الشــرور الداخلية في سورة الناس (الوسوسة). وهذا التدرج يتناسب مع طبيعة النفس البشـــرية التي تحتاج إلى حماية من المؤثرات الخارجية والداخلية معاً.

وهكذا تكتمل دائرة الحماية: حماية من الشـــرور الخارجية في سورة (الفلق)، وحماية من الشرور الداخلية في سورة (الناس). وعقيدة راســـخة في الإله الواحد (الإخلاص)، وهو نظام متكامل يستجيب لحاجة الإنسان للأمن الروحي والنفسي في مواجهة تحديات الحياة.

ترتيبها نزولا حسب الترتيب الذي اعتمدناه هو 22، والترتيب كما أسلفنا مختلف فيه، ولكنّنا رأينا أنّ القرآن كان حتّى سورة الإخلاص لا يصادم عبادة الأصنام صراحة، وسبق أنّ أقرّ قدسيّة المكان الذي تقدّسه قريش في سورة الفيل.

اليوم نحن أمام سورة النجم التي يقال فيها إنّها كانت أوّل ما جهر به الرسول من القرآن في مكّة بين عموم الناس، والسورة هنا تتعرّض لأصنام العرب صراحة وتذكرها بما لا يسرّهم، فهي تمثّل نقلة خطابيّة حقيقيّة، وفيها معانٍ مرّت معنا سابقًا، لا سيّما تلك التي في سورة التكوير.

هذه النقلة في الخطاب، وحادثة الجهر بالقرآن أمام الناس في مكّة، يعني أننا أمام دعوة عامّة لم تعد سريّة، ولقد عرفنا ممّا سبق أنّ السريّة كانت سرّيّة نسبيّة، إذ إنّ كبار قريش كانوا قد سمعوا دعوة النبيّ مبكّرًا وآذوه ومن ذلك ما نزل سابقا من "تبّت يدا أبي لهب" أو "عتلّ بعد ذلك زنيم"، ولكنّها هنا دعوة مفتوحة للناس كلّهم يسمعها المارّة في مكّة وأسواقها، في أوّل الجهر بالدعوة فعلا، وفيها نلاحظ مصادمة قريش صراحة في آلهتهم، وهذا يشي بوجود خلق كثير اتّبعوا النبيّ في مكّة.

إضاءات لغويّة

والنجم إذا هوى: قيل هو قسم بأفول نجوم السماء الذي يعرفه كلّ من راقب الأفق في الليل، وقيل هو النبات الناجم إذ يذوي فيهوي أي يقع، وقيل هو سقوط النجوم في يوم القيامة، وكلّه قسم بتغيّر حال شيء ناجم عفيّ فيندثر بعد ازدهار. ولقد تعلّمنا أن نراعي معنى ما يذكّرنا به القسم، إذ يكون هذا المعنى مدار السورة فيما بعد.

ما ضلّ صاحبكم وما غوى: أي إنّ محمّدًا الذي تعرفونه وصحبتموه زمنًا لم يفقد صوابه (الضلال)، ولم يتقصّد الظلم (الغواية).

وما ينطق عن الهوى: أي إنّ القرآن الذي يجيء به ليس من عنده وليس حسب هواه، ونعرف أنّه يقصد القرآن حصرًا من الآية التي تلتها "إن هو إلّا وحي يوحى".

علّمه شديد القوى: المقصود ملاك الوحي، ويسمّى جبريل.

ذو مرّة: صفة ملاك الوحي أنّه ذو عقل راجح فوق قوّته الشديدة.

فاستوى: والاستواء هو استقرار أمر حكمه على ما ملك، وهذا بسبب حكمته وقوّته المذكورتين آنفًا.

وهو بـالأفق الأعلى، ثمّ دنـا فتـدلّى: أي علّمـه وهو بـالأفق الأعلى، ثمّ دنا منه فتدلّى له أي بات قريبا منه.

فكان قاب قوسين أو أدنـى: والقاب وتر القوس، أي إنّه بات بقربه مدّ قوسـين، أي في مسـافة وترين من أوتار القوس، أو قيل إنّه اقترب حتّى بات كأنّه وتر في قوسـين، ونرى أنّ الأولى هي الأرجح لغة.

فـأوحى إلى عبـده مـا أوحى: أوحى من الوحي، أي أملـى عليـه القرآن، وعبـده هنـا قد تكون بمعنى عبد الله، وفيهـا التفاتة في الضمير أي نقل معنى الضمير إلى الله، أو عبده بالمعنى المعروف عند العرب وهو الوليّ المطيع ولا يلزم ذلك أن يضـاف إلى إلهه، فيكون المقصـود هنا هو الملاك ذاته، وهذا ليس بشرك.

ما كذب الفؤاد ما رأى: أي إنّ عقل النبيّ وقلبه عرفا أن ما يراه حقّ وليس وهمًا نراه بأعيننا وتكذّبه قلوبنا.

أفتمـارونـه على مـا يرى: أي أتريدون غلبتـه بـالجدال غير المحقّ حول ما يرى بأمّ عينه وما يصـدّق به قلبه. أيترك ما عرفه من أجل ما تقولون!

ولقد رآه نزلـة أخرى: قيل "نزلـة" هنـا بمعنى "في نزول آخر للملاك"، وقيل بمعنى "مرّة أخرى".

عند سـدرة المنتهى: أي عند المكان الذي تسـدر عنه الأبصار، وقيل شجرة سدر عظيمة ولكنّ هذا من المشترك اللفظيّ، الذي نرى أنّ علينا أن نتجنّب الوقوع فيه، فالمعنى الصوتيّ أولى، وهذا نرجح أن تكون السدرة هنا من سدر البصـر أي تحيّره، وما ينتهي عنده، تقول العرب سـدر البعير أي تحيّر من شدّة الحرّ. فليس الكلام هنا عن شجرة متخيّلة.

عندها جنّة المأوى: أي بعد انتهاء الإدراك البصـريّ تكون جنّة المأوى.

إذ يغشى السدرة ما يغشى: ويغشى تعني غطّى أو أحاط أو أخفى، وسدرة نهاية الإدراك هذه يغطّيها عنكم ما يغطّيها.

ما زاغ البصر وما طغى: "ما" هنا قد تكون اسمًا موصولا أي بمعنى الذي، أي يغشى نهاية الإدراك ما يزيغ البصـر وما يطغيه، وقد تكون بمعنى نفي أن يكون بصـر الرسول زاغ أي انحرف عن مقصده، "وما طغى" أي أنّ بصره لم يظلم، فلم يتوهّم ما لا يوجد. وأذهب إلى أنّ الثانية هي الأحقّ، بقرينة أنّ الكلام لم يخرج عن الرؤية الحقّة كما في الآية التي تلتها "ولقد رأى من آيات ربّه الكبرى".

اللات والعزى ومناة: كلّها أسماء أصنام تقدّسها العرب، وهي ليست بالضرورة تماثيل، فقد تكون شجرًا أو صخرًا

كما نعرف من التاريخ، ولكنّ العرب كانت تؤمن أنّ أرواحًا إلهيّة حلّت بها، فأطلقوا عليها هذه الأسماء، ومعانيها: اللات أي التي تلوي، والعزّى أي الأعزّ مؤنّثة، ومناة أي ما تستمطر بها الأنواء وهي عواصف الجو.

أفلكم الذكر وله الأنثى: هذا ليس انتقاصا من الإناث، ولكنّه تنزّل على ما تراه العرب حينذاك من اتّضاع شأن الأنثى، فيقول: كيف تنسبون لربّكم ما تأنفون نسبته لكم!

قسمة ضيزى: أي قسمة ظالمة جائرة.

سلطان: ما اجتمع فيه العلم والحكم، أي العلم المنهجيّ أو العلم الذي يحتكم إلى منهج منضبط.

أم للإنسان ما تمنّى: سؤال استنكاريّ يقول: إنّ أمر الله ليس بالأمنيّات، وأنتم تعلمون ذلك.

ذلك مبلغهم من العلم: أي هذا أقصى ما يبلغه علمهم.

فلا تزكّوا أنفسكم: أي لا تدّعوا استحقاقكم أمرًا.

أعطى قليلا وأكدى: أي منح القليل ثمّ قطع ولمّ يفي بما يجب عليه. وقيل إنّ لها مناسبة نزول في الوليد بن المغيرة إذ خاف عذاب الله فاقترح عليه أحدهم أن يعطيه بعض المال ويحمل عنه عذاب يوم القيامة، فلمّا جاء وقت

القضاء لم يوفّه نصيبه. والسياق يدلّ على شيء من هذا، وهو الأرجح حسب أسباب النزول.

ألّا تزر وازرة وزر أخرى: أنّ النفس لا تحمل إلّا ذنبها، ولا تحمل ذنب نفس أخرى. وهذا ما يدلّ على ما رجّحناه من مناسبة النزول.

خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى: فيه إحالة على ما سبق من تحقير العرب للأنثى بأنّهما كلاهما خلق الله خلقهما من شيء واحد هي نطفة تكون هذه أو هذه.

وأنّه هو أغنى وأقنى: إمّا أن تكون أغنى وأقنى صيغ تفضيل مثل أكرم، أو أن تكون أفعالا ماضية بأنه مانح الغنى ومانح القنية وهي المال الذي يفتخر به، وفي كليهما المعنى ذاته وهي من جمال العربيّة، فالذي يُغني هو الأغنى.

وأنّه هو ربّ الشعرى: الشعرى نجم مضيء في السماء كان معبودًا عند بعض العرب ومنهم جدّ من أجداد النبيّ، فالله يقول إنّه هو ربّ كلّ معبود بغير حقّ، فهو المعبود بالحقّ.

والمؤتفكة أهوى: يعني أقوامًا انقلبت بهم ديارهم في زلزال أو نحوه، فهو من أهلكهم. وقيل هم قوم لوط، وقيل سمّوا بذلك لما جاؤوا به من الإفك، وهو قلب الحقائق.

فبأي آلاء ربّك تتمارى: أي أيّها الســـامع (الرســول أو أيّ سامع) في أيّ هذه العلامات تشكّك وتجادل بغير حقّ!

هذا نذير من النذر الأولى: أي إنّ هذا إنذار لك بما تحقّق من إنذار الأوّلين الذين ذكروا من قبل أي قوم عاد وثمود والمؤتفكة.

سامدون: أي متكبّرون، والسامد من رفع رأسه كالإبل.

فاســـجدوا لله واعبدوا: وهنا لفتة بلاغيّة بأن قدّم الســـجود على العبادة، والسجود هو الاستسلام لأمر ما، فالسجود لله هنا هو الاستسلام وهو ضدّ السمد المذكور برفع الرأس تكبّرًا، أي فاخضعوا لأمر الله، واعبدوه.

مقالة السورة

أقسم بالنجم مذكّرًا إيّاكم بأنّه سيهوي: إنّ صاحبكم محمداً الذي عرفتموه وصحبتموه لم يضلّ طريق الحقّ ولم يتعمّد الانحراف. وما يتلو عليكم من قرآن ليس من عند نفســـه، إنما هو وحي يوحى إليه، علّمه إياه ملَك شديد القوى، حكيم مستوٍ على أمره.

ظهر له هذا الملَك في الأفق الأعلى، ثم اقترب منه وتدلّى، حتى صـــار قريباً منه قرب وترين من قوس. فأوحى إلى

محمّد العبد الصـــالح ما أوحاه الله إليه. لم يكذّب قلب محمد ما رأته عيناه، أفتظنّون أنّه ســيترك من خلال جدالكم حقًّا رآه بعينيه؟

ولقد رآه مرة أخرى عند منتهى الإدراك البشـــري، حيث تقع جنـة المـأوى، حين غطى ذلـك المقـام مـا غطـاه. فلم ينحرف بصره، ولم يتجاوز ما رأى، إذ رأى من آيات ربه العظيمة.

أفرأيتم هذه الأصــنام التي تعبدونها وتطلقون عليها أسـماء الإناث: اللات والعزى ومناة؟ أتجعلون لأنفســكم الذكور ولله البنات ترفضــونها؟ تلك إذن قســمة ظالمة! ما هي إلا أسـماء سـميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من علم أو حكم. ما تتبعون إلا الظن وما تهوى أنفسـكم، مع أن الهدى قد جاءكم من ربكم.

أيظن الإنســـان أن له كلّ ما يتمنى؟ فلله الآخرة والأولى يعطيهما من يشــاء. وكم من ملائكة في السـماوات لا تنفع شفاعتهم شيئاً إلا بعد إذن الله لمن يشاء ويرضى. إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليســمون الملائكة تسـمية الإناث، وما لهم بذلك من علم. ما يتبعون إلا الظن بأن قالوا إنّ العالم العلويّ كالسفليّ، والظن لا يغني من الحق شيئاً.

فأعرض عمّن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا. ذلك أقصى إدراكهم. إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى.

لله ما في السماوات وما في الأرض، ليجزي المسيئين بما عملوا ويجزي المحسنين بأحسن ممّا عملوا. أي الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، إلّا اللمم من الذنوب وتلك ممّا يغفره الله، إن ربك واسع المغفرة.

أرأيت الذي أعرض عن دعوتك، فأعطى القليل ليحمل غيره عنه العذاب ثم امتنع؟ أعنده علم الغيب فله أن يرى رأيه؟ أم لم يصله الخبر المشهور الذي تعرفونه مما جاء في صحف موسى وإبراهيم الذي كاد أن يذبح ابنه وفاء لعهد الله: إنّ النفس لا تحمل وزر نفس أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما حصّل وقصد أن يحصّل، وأن عمله سوف يُعرض على الله، ثم يُجزى الجزاء الأوفى أن خيرًا فخير منه أو شرًّا فمثله؟

وأن إلى ربك المعاد، وهو الذي بيده السعادة والحزن، والموت والحياة، وقد خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة تتخلّق في الرحم، كذلك فإن عليه إعادة الخلق، وأنه هو الذي بيده الغنى، وأنه ربّ كلّ معبود حتّى الشعرى،

وأنـه أهلـك عـاداً الأولى، وثمود فمـا أبقى، وقوم نوح من قبل.

فبأي آيات ربك تشـكّك؟ هذا إنذار بمصـير الأقوام السـابقة. لقد اقتربت الوعد بالقيامة القريبة، ليس لها من دون الله ما يمنعها. أفمن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون، وأنتم متكبرون! فاخضعوا لله واعبدوه.

المعنى الشمولي

تقدم سـورة النجم نقلة نوعية في الخطاب القرآني، إذ تنتقل من مرحلة المواجهة غير المباشرة إلى المواجهة الصريحة مع معتقدات قريش وأصـنامها. وتؤسـس السـورة لمنهج متكامل في مواجهة العقائد الباطلة، يبدأ بتأكيد مصـدر الوحي وصـدق الرسـول، ثم ينتقل إلى تفنيد المعتقدات الباطلة من خلال كشف تناقضاتها الداخلية.

تكشـف السـورة عن العلاقة العميقة بين المعرفة والإيمان، فهي تربط بين الرؤية البصـرية والرؤية القلبية، وتؤكد أن المعرفة الحقيقية لا تقف عند حدود الحواس، بل تتجاوزها إلى ما وراء الإدراك الحسـي. وفي هذا رد على المنهج المادي الذي يقصر المعرفة على المحسوسات فقط.

تقدم السـورة نقدا عميقا للعقل الوثني الذي يتناقض مع نفسـه، فهو يجعل لله ما يكره لنفسـه، ويتبع الظن في أخطر

قضـــايا الوجود. كما تكشــف عن خلل منهجي في التفكير الوثني يتمثل في اتباع الهوى وتقديس الموروث دون دليل أو برهان.

تؤسس السورة لمبدأ المسؤولية الفردية في العقيدة والعمل، فكل نفس مسؤولة عن اختياراتها، ولا يمكن لأحد أن يحمل وزر غيره. وفي هذا تحرير للإنســان من ســلطة الكهنوت والوساطة بين العبد وربه.

وتختم السورة بربط المشهد الإنساني بالمشهد الكوني، فالله رب كل شــيء، وإليه المنتهى، وهو القادر على البعث كما هو قـادر على الخلق الأول. وفي هـذا الربط تـأكيد على وحدة الخالق ووحدة الوجود في غايته ومصيره، مما يجعل العبادة والخضــــوع لله نتيجة منطقية لهذه الحقيقة الكونية الشاملة.

خاتمة الجزء الأول: وقفة على الدرب

في ختام هذا الجزء الأول من رحلتنا في "تجديد البيان في تقريب القرآن"، وبعد أن تنقلنا بين خمائل السور الأولى نزولاً، متّتبعين خيط الوحي في مراحله المبكّرة حسب الترتيب التقريبي الذي اعتمدناه، يحسن بنا أن نقف وقفة تأمّل، لا لنجزم بوصول، بل لنستشرف أفقاً ونستوضح درباً. لقد كان المقصد الأساس هو محاولة الاقتراب من المعنى القرآني الأصيل، عبر بوابة اللغة في سياقها الأول، وبأدوات النظر العقلاني والتاريخي، سعياً لتقريب هذا النصّ الخالد إلى فهم الإنسان المعاصر وتجديد صلته به.

ولعل هذه القراءة المتأنية، الملتزمة بسياق النزول والمعتمدة على الغوص في جذور الألفاظ ودلالاتها الأصلية، قد أوقفتنا على مفترقات طرق في الفهم، وكشفت لنا عن رؤى قد تبدو مغايرة لما استقرّ في الأذهان أو شاع في التفاسير المتداولة. ولا ندعي أن ما توصلنا إليه هو القول الفصل، فالقرآن بحر لا تنفد عجائبه، ولكنها نتائج فرضها المنهج الذي ارتضيناه، ومن أبرز ما استوقفنا في هذا المسار حتى الآن، وهي بذاتها مقدّمات قد يكون لها نتائجها أيضًا:

- **البسملة ومعناها الأصيل :**بدا لنا أن البسملة وهي مفتتح كتاب الله، لها سياقها الخاص جداً كإعلان عن نسبة الكلام الآتي إلى الله الرحمن الرحيم. وأن ترديدها في كل مقام، وإن كان ممارسة درج عليها المسلمون، قد لا يتفق تماماً مع معناها ووظيفتها الأولى إلا إذا قبلنا بانزياح دلالي حدث عبر الزمن. وأنا بصفتي الشخصية لا أقبله، فالأصل فيها الإلصاق والنسبة، لا الاستعانة المجردة التي قد تُفهم منها اليوم.
- **اسم الله الرحمن:** رأينا أنّ هذا المنهج قد يكون حلًّا لخلاف رأيناه حول اسم الله الرحمن، واستبعادًا لما رأيناه عند شيوخ كثر من تعميم للرحمة وتخصيص لها بافتراض ما ليس في الكتاب، أو جعله اسمًا متعلّقًا بالجبروت الإلهيّ بتتبّع مواضع استخدامه، واستبعاد هذا القول وهذا المنهج يعفينا من إعادة النظر في معاني الأسماء كلّها، فالقرآن يفهم بالعربيّة وليس الأمر مقلوبا كما يفعل بعض الغيورين.
- **"سرّيّة" الدعوة المبكرة :**إن المواجهة الصريحة مع رموز الشرك، والتصريح بأسمائهم أحياناً (كأبي لهب) أو بأوصافهم الدقيقة التي لا تخطئهم (كصفات

الوليد بن المغيرة أو الأخنس بن شــريق) في ســور نزلت مبكرة نســبياً وفق ترتيب النزول، يدعونا إلى إعادة النظر في الصورة النمطية لـــ"سرية" الدعوة المطلقة في ســنواتها الأولى. فلعل الســرية كانت نسبية، أو أنّ المواجهة بدأت أبكر ممّا هو شائع.

- **أولويات الدعوة وتوجيهها :**كشــفت لنا ســور مثل و"المزمل" و"المدثر" عن مرحلة بدا فيها الاهتمام موجهاً نحو كبار القوم وســادتهم، أملاً في إســلامهم الذي قد يغير المعادلة، ثم جاء التوجيه الإلهي ليرسي ميزان القيمة الحقيقية على الصــدق والخشــية والإقبال، وليؤكد أن الهداية بيد الله، وأن الرســول ليس عليه تبعة من إعراض المعرضين المستغنين.
- **فهم المعوذتين وما يتصل بهما :**عند قراءة سورتي الفلق والناس، ومن خلال التركيز على دقة اللفظ القرآني، وجدنا أن الاســتعاذة تكون من "شــر" ما خلق، ومن "شر" الغاسق، ومن "شر النفاثات" (أي السحرة الذين يخدعون العقول)، ومن "شر الحاسد". فالشــر هنا ينســب للمخلوق ولفعله وإرادته، وليس بالضرورة إقراراً بقوة ذاتية للسحر أو العين تتجاوز الأسباب والمسبّبات أو الإرادة الإنسانية في الأذى.

فالاستعاذة هي طلب الحماية من الأذى المتأتي من هذه المصادر، ومن الوساوس الداخلية والخارجية، وليست إثباتاً لقوى خفية خارقة للطبيعة بالصورة التي قد تُفهم أحياناً.

وهناك نتائج أخرى لا يتسع المقام لتفصيلها، كالحاجة لمراجعة فهمنا لكلمة "أمّي" المنسوبة للنبي، أو المعنى الأول لكلمة "الصلاة" في صدر الإسلام، أو دلالة "الصراط" في الفاتحة، أو الفهم الدقيق لمصطلحات محورية كـ"الدين" و"الكفر" و"الإيمان" في سياقاتها الأولى.

إن هذه القراءة، بكل ما أثمرته حتى الآن من رؤى قد تبدو مفاجئة، لا تمثل نهاية المطاف، بل هي مجرد خطوة على الدرب. وهي تفتح الباب أمام تساؤلات أعمق وأكثر إلحاحاً:

- ما الذي ستكشف عنه قراءة السور اللاحقة، المكية منها والمدنية، بهذا المنهج اللغوي السياقيّ؟ وكيف سيتطور فهمنا لتطوّر الخطاب القرآني نفسه؟
- كيف ستتغيّر نظرتنا إلى قضايا التشريع، وبناء المجتمع، والعلاقة مع الآخر، عندما نقرأ الآيات

المتعلّقة بها في ضـــوء هذا الفهم اللغوي والتاريخي الدقيق؟

- هل إعادة قراءة هذه الســور المبكرة ذاتها، بعد استيعاب ما سيأتي لاحقاً، ستفتح لنا آفاقاً جديدة في فهم ترابط النص القرآني ووحدته العضويّة؟

تبقى هذه الأسـئلة مفتوحة، ويبقى القرآن كتاباً لا تنقضـي عجائبه، وتبقى محاولات الفهم والتدبّر رحلة مســتمرّة، نرجو أن تكون هذه المقالات قد أسهمت في إنارة جزء من الطريق فيها.

والله نســأل أن يهدينا ســواء الســبيل، وأن يفتح علينا من خزائن فهم كتابه ما نزداد به تقى.

تمّ في العاشر من شوّال 1446 هـ

نورالدين